

سلسلة إحياء التراث العربي
جبران خليل جبران
٤
الأعمال الكاملة
الأجنحة المتكسّرة
شريف نبيل
راجعه وضبط مدخله
إبراهيم صقر
مكتبة مصر
دار العلم والمعرفة

الأجنحة
المتكسرة

سلسلة إحياء التراث العربي

جبران خليل جبران

الأجنحة المتكسرة

تقديم

كرم الدكروري

راجعه وضبط مدخله

أ/ إبراهيم محمد صقر

الناشر

دار العلم والمعرفة

اسم الكتاب : الأجنحـــة المتكســـرة
تـــأليف : جبران خليل جبران
القطـــع : ١٤ × ٢٠
عدد الصفحات : ١٦٤ صفحة
سـنة الطبـع : ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م (طبعة جديدة منقحة)
الناشـــر : دار العلم والمعرفة
طباعــة : دار مصر للطباعة - القاهرة

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية - مصر
٢٢١٤٥/ ٢٠١٠
الترقيم الدولي: 977-11-1623-5



٢٠ ش عبد المنعم رياض - من ش حسني مبارك
زهراء مدينة نصر - القاهرة
ت : ٠١٢٣٨٨٨٩٣٠ - ٠١١٣٣٣١٢٣٨
E-mail : almmarfa@yahoo.com
almmarfa@gmail.com

عبلين - الجليل - فلسطين
جوال : ٠٥٢٣٠٧٧٣٣٤ (٠٠٩٧٢)
٠٥٢٨٥٠٢٨٢٦ (٠٠٩٧٢)
فاكس: ٠٤٩٥٠٢٤٧٢ (٠٠٩٧٢)

تقـــديم

رفَض المطارنْة الاشتراكَ في مراسِمِ استقبَالِ جُثمان جُبران خليل جبران، في عام ١٩٣١م لُيدفنَ -بِنَاء عَلَى وَصيّته- في بلدة بشرّي شَمال لُبنان. بَعد نَقل جُثمانه عَبْر البحرِ، مِن أمريكَا، لأنّه «كَافرٌ وُمهرْطِق»، بِزَعم هُجُومه علَى الكهنة.

وقبلَها رَفضَ كاهنُ الكنيسةِ المارُونيّةِ في نيويورك أنْ يُعطيَ تصريحًا لِكَاهِن الكَنيسةِ المارُونيّة في بوسطن بالصَّلاة على جُثمانِ جُبران لأنَّه -أي الكاهنُ- زَار جُبران في المُستشفى، «وعرفَ مِن الراهبةِ أنه رفضَ الاعترافَ بأنّه كَاثوليكيّ».

خشِيت فَرنسا التي كَانت تُسيطرُ عَلى مقَاليدِ لُبنَان أنْ يَضعَها رِجالُ الدينِ المَسيحيّ في حَرَج بَالغ أَمَامَ العَالم بعَدَم الصّلاة عَلى جُثمان الفَيلسوفِ والأَديبِ، والرسَّام الذي بَهَرَتْ كِتَاباتُه الغَربَ، واعتبرتْه جَريدةُ «النيُويورك هيرالد»:

«نَابِغة الملاَيينِ الذينَ يتكلَّمون العَربيَّة في الشَرق».

تدخّلَ سِكرتيرُ المطبُوعاتِ التّابعُ للمندوبِ الفَرنسيّ، بِمُساعدةِ

آخرينَ وشكّلوا وفْدًا وذَهبوا إلى مقرّ البَطريركِ المَارونيّ، إلياس الحُويك، لإقناعِه بِالعُدولِ عَن مُوقفِه، واستَعانَ أَحدُ المطَارنةِ بِكلماتِ لجُبرانَ ليثبتَ بها صِحّة مَوقفِهم الرَّافِض له تقول:

«في لُبنان، ذلك الجبل الغنيّ بِنور الشمسِ، الفَقيرُ إلى نُور المعْرفَة، قد اتّحَدَ الشَريفُ –يَقصِدُ الإقطاعيّ– والكَاهنُ على إِبَادةِ الفَلّاح المسْكين، الذي يَأكلُ خبزَه بِعرق جَبينِهِ، كيما يَحمِي جَسدَه مِن سَيفِ الأَولِ، ويَحمِي روحَه مِن لعْنَة الثّانِي».

وتَابعَ المطَارنةُ: هَل يُعقلُ أن نُكرمَ ونستقبلَ مَن له هذا الرّأي في الكَهنة؟

فأجَابَ أحدُ أعْضَاءِ الوفد المُدافع عن جُبران:

«إنّ كُتبه تُقرأ في كَنائسِ أمرِيكا، فَهل يُعقل أن يكونَ كَافِرًا مَن يَقولُ مُخَاطبًا السيدَ المسِيحَ في كِتَابه «يسوع ابن الإنسان»:

«وأنتَ أيها الجبّارُ المصلوبُ، النَاظرُ مِن أَعَالي الجلْجَلة إلى مُواكبِ الأَجيالِ، السَامعُ ضَجيجَ الأُممِ الفَاهمُ أَحلامَ الأَبديّةِ... أنتَ عَلى خَشَبة الصّليب المضرّجَة بِالدّمَاء، أَكثرُ جَلالاً ومهابةً مِن أَلْفِ مِلك علىَ ألفِ عَرْش، في أَلْفِ مملكة... بلْ أنتَ بَين النزعِ

والموتِ، أشدُ هَؤلاءِ قوّةً وبَطشًا مِن أَلفِ قَائِدٍ وأَلـفِ جَـيش، وألـف معرَكة... أَنـتَ بِكآبتِـك أَجمـلُ مِـن الرّبيـع بِأزهَـاره، بَـلْ أنـتَ بـينَ الجَلّادِين أكثرُ حُريةً مِن نُورِ الشَمسِ.. إنَّ إِكليلَ الشّوكِ عَلى رأَسِـكَ، هوَ أجلّ وأجملُ مِن تَاج بهرام، والمسمارُ في كفّك أثمَـنُ مِـن صَـولجان المـشترَى، وقطـراتُ الـدّماءِ عـلى قَـدَميك أسْـنى لمعانًـا مِـن قَلائِـدِ عشتروت».

تَأثّر البَطريركُ وبَكى. وقَـالَ آمـرًا الكَهنـة: «انْزلـوا إلىَ بَـيروت، واستقبلوا جُثمان جُبران، فهو أكثرُ تَدّينًا مِنّا».

استَقبلَ جُثمانَ جُـبران نحـو ١٦٠ كَاهِنًـا في مَـأتمٍ جَلَـلٍ شَـهدتْه كَاتِدرائيةِ القدّيس جِرجِس في بيروت.

فَشَلَ الثّرى في أنْ يقبُرَ «عواصفَ» جُبران، وعاشتْ فَلسفتُه لتَثيرَ غَـضبَ مُعظـم رِجَـالِ الـدّين -مَـسيحيين ومُـسلمين- وحَنـاجرَ المُتَشدّدين وسخَطَ المقلّدِين ممّن صَدَأَتْ أَروَاحُهم وأُغلقتْ عُقـولُهم. وسَيظلُّ جُبران نَاقوسًا مُزْعِجًا مَـا بقـيَ الـشَرقُ جَـسدًا تَنهـشُه عِلَـلُ البَلَادَة، وأهلُه يتلذّذُون ركوعهم مِنَ المهْد إلىَ اللّحدِ أمَـامَ طَـواغِيتِهم ومَا أَلفَوْا عَليه آباءَهم، دُونَ أنْ يَتَأملُوا الحَياةَ ويُعِيدوا مَعرفةَ أَنْفـسِهم بِوعْيٍ وَفكْر طَلِيق.

جُبران خليل جبران
١٨٨٣م-١٩٣١م
حياتُـه وآثـاره

مولده.. نشأته.. سفره

وُلد جُبران في بَلدة بشرّي المتّكئـةِ عَلى كَتِف وَادي قاديشا، في ظِلالِ الأَرْز حَيثُ تَتَفجرُ الأَرضُ مَاءً وخُضرةً وزهرًا، والثُلوجُ تعمّم الجِبالَ مُعظمَ فُصولِ السنة، وكَانت وِلادتُه صَباحَ السَادسِ مِن كَانُون الثاني (يناير) سنة ١٨٨٣م، في كَنَفِ عائلةٍ قليلـةِ المـواردِ مؤلّفـة مِـن الأب خليل، والأم كامِلة رحمة التـي كَـان لهَـا مِـن زَواج سَـابق ولـدٌ اسمُه بُطرس، ورُزقت مِن زَواجها مِـن خليـل جُـبران ثلاثـةَ أَولاَد: جُبران أكبرهُم، وأُختَاه مَرْيانَا وسُلطَانة.

في الخَامسةِ مِن عُمره تَلّقىَ مَبادئَ العَربيّةِ والفَرنـسيّة والـسِّريانيّة في مَدرسةِ أليشاع «تحت السّنديانَة» وتعرّفَ عَلى النَهضةِ الإيطاليةِ مِن جَرّاء تردّده علَى مَركزٍ للرُّهبَان الإِيطَالِيين.

أُصيبَ والده بِنكسة ورَاحَ ضَـحيةَ تُهمـة أودَت بِـه إلىَ الـسّجن، فَلملَمت كَامِلة رحمة نفسَها وسَافَرت مَع أولادها الأربعـة: بُطـرس، وجُبران، ومريانا وسلطانة إلى أمريكا، سنة ١٨٩٤م.

في بوسطن:

استقرتِ العَائلةُ في الحيّ الصينيّ مِن مَدينةِ بُوسطُن، حَيثَ دَخلَ جُبران مَدرسةً شَعبيةً تَعلّم فِيها أصولَ اللغةِ الإنجليزيّة، وكَانَ له، بِفضلِ مُعلّمته الأمريكية، لِقاء مَع «فريد هولاند» الذي ساعدَه عَلَى دِراسةِ تِقنيةِ الرسْمِ ومكّنه مِنْ مُواصَلة تَعلّم الإنجليزية.

وبَعد ثَلاث سَنوات مِن العَملِ والكَدّ، استَطاع أَفرادُ أسرتِه أن يَجمعُوا مِقدارًا مِنَ المَال مَكّنهم مِن إرسَال جُبران إلى بَيروتَ ليدرُسَ اللغَةَ العَربيةَ والفَرنسيّة، لأَنهم تَوسّموا فِيهِ الرجلَ النَابغةَ الذي سَيكون له مُستقبلٌ بَاهر، ومكانةٌ سامِقة، في عَالم الفِكر.

بيروت: مدرسة الحكمة:

في بَيروتَ التحَقَ بِمدرسة «الحِكمة» وطُوال ثَلاثة أعَوام اسْتَطاعَ أنْ يُوسّعَ مَعرفتَه باللّغة العَربيّة، وتتفتّحَ له، بفضلِها، آفاقٌ جَديدة، وكانَ له رُفقاءُ وطّد معرفتَه بهم، ومِنهم النحّات يوسُف الحويك الذي سيكونُ لَهُ شَأنٌ كَبير في حيَاة جُبران. وكَان مُعلّمه في اللُغَة العَربيّة الخوري يوسُف الحدّاد الذي استَقَى جُبران مِنهُ اللُغَةَ مِن مُورِدهَا العَذْب، فَأجادَهَا وأَبْدعَ فِيهَا.

العودة إلى بوسطن: تجربة الموت:

وفي عام ١٨٩٩م، عامَ عَودته إلى بُوسطن بَدأَ في مُزاوَلـةِ الرّسْـم والكتَابةِ، لَكنّ الفَواجِعَ العَائِلية تَوّالت عَليهِ فَأوقَفتهُ مُرغَمًا أمَام تَجرُبة الموتِ، وذَلك عِندَما مَاتت أُختُه الصُغْرَى سُلطَانة بِمرض السّل عَـام ١٩٠٢م، ولِحِقَ بها أخوه بُطرس، ثُمَّ أمّه، في السنةِ التَاليـة، وبِـالَمرض عينهِ، فَاستوْلى الحُزنُ واليَأسُ عَليه، وَعبّر عَن ضَراوة ألمه بِقولـه بَعـد مَوتِ أمّه: «فَقدتُ يَنبوعَ الحُنوّ والرَأفَةِ والغُفْرَانِ والصّدرَ الذي أسـندُ إِليه رَأسي، واليَد التي تُبَارِكني وتَحرُسني».

إلاَّ أنّ هَذهِ الفَواجِعَ لم تهدّ عَزيمَةَ جُبران، بـلْ وجـدَ فِيهَـا حَـافزًا للانطِلاقِ مِن جَديدٍ في عَـالَمِ الفَـنّ، واستطَاع سَـنة ١٩٠٤م أنْ يُقـيمَ مَعرِضًا لرسُومه الرّمزيّة، تَعرَّفَ خِلاله إلَى سَيدةٍ أمريكية تُدعىَ «ماري هاسكل»، وعَلَى جَانب مِنَ الثّراء، فَقـد أُعجِبـتْ بِرسـومِه وأَظهـرتْ إِعجابَهَا بها، ودَعتْه إلى عرْضِها في المدرسةِ التِي كَانت تديرُها.

وقدْ كَان لماري هَاسكل هَـذهِ دَورُهَـا الحَاسـمُ في تَوجِيهـه الأَدبيّ والفَنيّ. فَقدْ مَنحت الفَنانَ النَاشئ رِعَايتَها ومُسَاعدتَها فأكَـبّ يَرسُـم ويكتُب، وَينطلِق، وبِالتَالي، في عَـالم الـشُهرة، وشِـعارهُ: «لا أريـدُ أن أكتُبَ اسمي بِماء عَلَى سِفْر الوجود، بَل بِأحرفٍ مِن نَار».

وفي العَام نفسه، ١٩٠٤م التَقَى جُبران أمين الغريب صَاحبَ جَريدة «المُهاجَر» فأُعجِبَ هَذا الأَخيرُ إعجَابًا شَديدًا بِخَواطِرِ جُبران ورُسُومِه. وعَرضَ أن يَنشرهَا في جَريدَته، وفي آذار (مارس) مِنَ السَّنَةِ نَفسِها ظَهرَ أولُ مَقَال لجُبران عِنوانُه: «رُؤيَا» وكَان لَهُ صَدَاهُ الواسِعُ والعَمِيقُ والبَليغُ لَدَى القُراءِ مِنْ حَيثُ طَرَافَةِ النّهج والإبدَاعِ في الخَيَالِ.

هَذهِ الانطلاَقةُ شَجَعتْه عَلَى أنْ يَجمعَ مَا كَانَ ينشُره في الصّحف مِن مقَالاتٍ وأقَاصِيصَ في ثَلاثةِ كُتُبٍ نَشرَها عَلَى التوَالي خِلالَ أَربَع سَنوات وَهيَ: المُوسيقى (١٩٠٥م)، وعَرائِس المُرُوج (١٩٠٦م)، والأَروَاح المُتمَردَة (١٩٠٨م).

باريس: تجربة فنية لامعة:

وكانَ جُبران أبدَى لماري هاسكل رَغبتَه في تَعلُّم أصولِ الرّسم في بَاريسَ، فَلم تَقفْ ماري حَائِلاً دُونَ تحقيقِ رَغبتهِ، إذْ لم تَكُن تَضِنَّ عَليهِ بِالمُسَاعَدة الماديّة. كَما لم تكُن تَضِنّ عَليهِ بِحنَانِها، فلّبت رغبته وأرسَلتهُ إلى باريس عام ١٩٠٨م.

وفي باريسَ أقَامَ سَنتين يختلفُ إلى مَدرسَة «الفنُون الجَميلة» ويَتلقَى دُروسَ «أكَادِيمية جُوليَان» التي لم يَطُلْ بِه الوَقتُ حَتى تَركَها

لُيمَارِسَ الرسّمَ الحُرَّ في مُحترف اسْتَأجرَه هُو وصَدِيقُه النّحَات يُوسف الحويك. وكَانت هَذهِ المَرحَلةُ مِنْ حَيَاتِه محطّةً بَارِزة فَتحتْ لَهُ آفَاقًا جَديدة. ولم يَنسَ «لُبنانه» فظلَّ يحِنّ إليهِ ويَتَذكّره شَمسًا طَالِعةً مِن وَرَاءِ صَنين، أو جَانِحةً إلى الغُروب. وطلولاً وأودية يَنسَاب مِنها السّحْر انسِيابَ العِطر مِن الزهْر الفوّاح. أمَا الكسْبُ الرَفيعُ الذي نَالهُ في بَاريس والذي ملأهُ عزّة وفَخرًا. وهُوَ أنَّ الجَمعية الوطنية للفِنون الجَميلة، في بَاريس، اختَارت إحدَىَ لَوْحَاته مِنْ بَين تِلكَ التي عَرضَها في المَعرِض الذي أقَامته. فَلا تَسلْ، إذ ذَاك، عَن نَشوة الفَنانِ التي تَفُوق كُلّ وَصْف.

إلى بوسطن فنيويورك:

عَام ١٩١٠م عَادَ إلَى بُوسطن، وانتقلَ عَام ١٩١١م إلى نيويورك بِإلحَاح مِن أَمِين الريحانيّ الذي التقَاهُ في بَاريس، فَاستَأجرَ غُرفةً في غرينتش، حَيّ الفَنَانِين في تِلكَ المَدينَة، ونشر في السنة ١٩١٢م «الأجنحة المتكسرة» وهِيَ قصّة جَمع جُبران بَينَ دِفتَيها أصْدَاءَ خَفقَاتِ قَلبِه حَتى تعرّف، أثنَاء إقَامَته بَينَ بيرون وبشرّي إلى حلا الضاهر، وأَهْدَى هَذَا الكِتابَ عَربونَ وَفاءٍ إلى ماري هاسكل «التي تحدّقُ بِالشمسِ بِأجفَانٍ جَامدة، وتَقبِضُ عَلَى النّار بِأصابعَ غَيرِ مُرتَعشة،

وتَسمعُ نَغمةَ الرُّوح الكلّي مِن ورَاء ضَجِيج العُميان وصُرَاخِهم».

في سَنة ١٩١٤م جَمعَ في كِتَاب أسمَاه «دمعة وابتسامة» مَقَالاتٍ كَانَ قَد نَشرَها في بَعض المجلّات والصّحُف. وفي الآنَ نَفْسه، كَانت ماري هاسكل تُشّجِعُه وتَدْفَعُه عَلَى الكِتَابةِ باللغَة الإنجليزية؛ فَأصدَر «المَجْنُون» سنة ١٩١٨م، و«السَابِق» سنة ١٩٢٠م.

وفي اللُّغَة العَربيّة صَدَرَ لَهُ «الموكب» سنة ١٩١٩م، و«العَوَاصِف» سنة ١٩٢٠م، و«البَدَائِع والطَرَائِف» عام ١٩٢٣م.

إبّانَ الحَرب العَالميةِ الأولَى، حَلّت الكَارِثة بِلُبنَان فَجوّعت أبنَاءَه وشرّدتهم وقَضْت عَلَى الآلافِ منهم، فَتنغّص عَيشُ جُبران، وعبّر في سِلسِلةٍ مِنَ المقَالاتِ التي نَشَرهَا، عَن هَوْل الفَاجعةِ وأثرِهَا في نَفسِهِ، ولم يَكتفِ بالكتابةِ بَلْ سَاهَم مَعَ بَعض إخْوَانِه الأُدبَاءِ في إنْشَاء لجنَة إغَاثةِ المَنْكُوبينَ التي استَطَاعت أنْ تُخفّف -بَعضِ الشَيءِ- مِن وَطأة المأسَاةِ عَلَى اللُبنَانِيين.

تأسيس الرابطة القلمية:

في هَذِهِ المرحَلة توَطّدت عِلاقَاتُ جُبران بِكَثيرٍ مِنَ الأُدبَاءِ اللُبنَانِيين والسُورِيين فِي المهاجَر، فعَقدُوا الاجتمَاعَاتِ الكَثِيرةَ وقَرّروا

إِنشَاءِ جَمعيةٍ تَنهضُ بِالأدب العَربِيّ الرَاكدِ إلىَ المُستَوى العَالميّ. وبَعدَ أَنْ وَضعت الحَربُ أَوْزَارَهَا، اسّتَمرت الاتصالاتُ بَينَ هؤلاءِ الأُدبَاء، التي انْتَهت بِتَأسِيس «الرَابِطَة القَلَميّة» التي كَانَ شِعَارُهَا انتِشَال الأَدَب العَربِيّ «مِنْ وَهدَة الخُمُول والتَقلِيدَ إلىَ حَيثُ يُصبِحُ قُوةً فَعَّالة فِي حَياةِ الأمّة».

تَأسَسَت الرَابِطَةُ سنة ١٩٢٠م بِرئَاسَةِ جُبران، وكَانَ سَائرُ أَعضَائها المؤَسّسِين: ميخائيل نعيمه، نسيب عريضة، رشيد أيوب، ندرة حداد، وليم كستفليس، إيليّا أبو ماضي، ورشيد الباحوط.

غَيرَ أنّ اهتمامَهُ بِأمُور«الرابطةِ القَلميّة» لم يَصْرفه عَن الاهتِمَامِ بِنتَاجِهِ الشَخصيّ فَأصدَر سنة ١٩٢٣م رَائِعته «النَبيّ» بِاللغَة الإنجلِيزية. قَالَ عَنهُ: «إنّه دِيَانتِي وأقدسُ قُدسيّاتِ حَيَاتي». وقال عنه لماري هاسكل في إِحدَى رَسَائِله: «أُريدُ أنْ أَحيَا الحَقِيقَةَ. بَدَلاً عَن الكِتَابَةِ عَن النَّار. أفضّلُ أنْ أكُونَ جَمْرةً تَتَأجّج، أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ مُعَلمًا. وبِمَا أنيّ مُستَوحَد أُرِيدُ التَحَدُّث إلىَ جَميع المستوحدين».

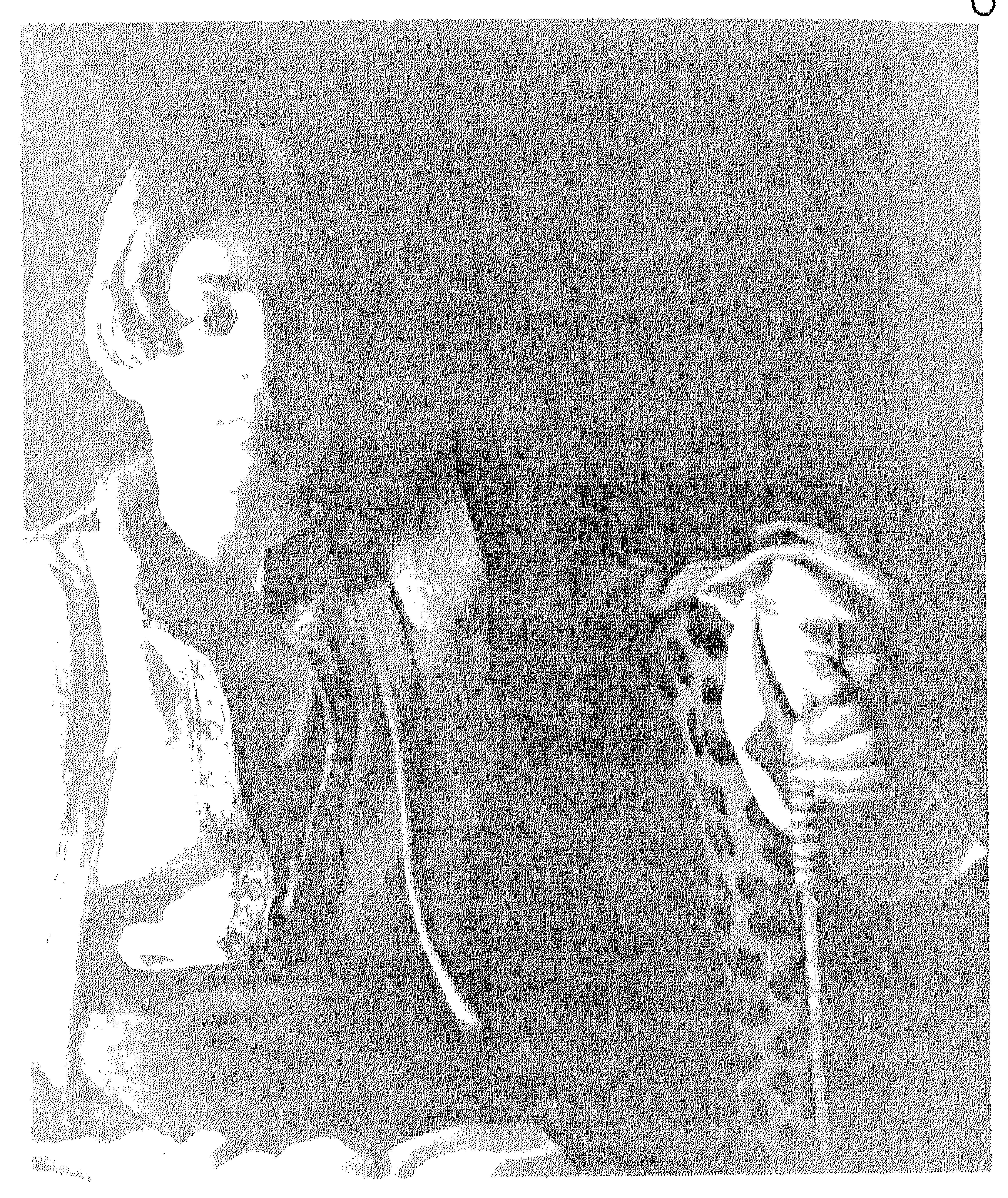
مرضه وموته:

ومَعَ أنّ المرضَ لازَمَهُ كَطِيفٍ فَقَضّ عَليهِ مَضجَعَه، إلاّ أنّه مَا

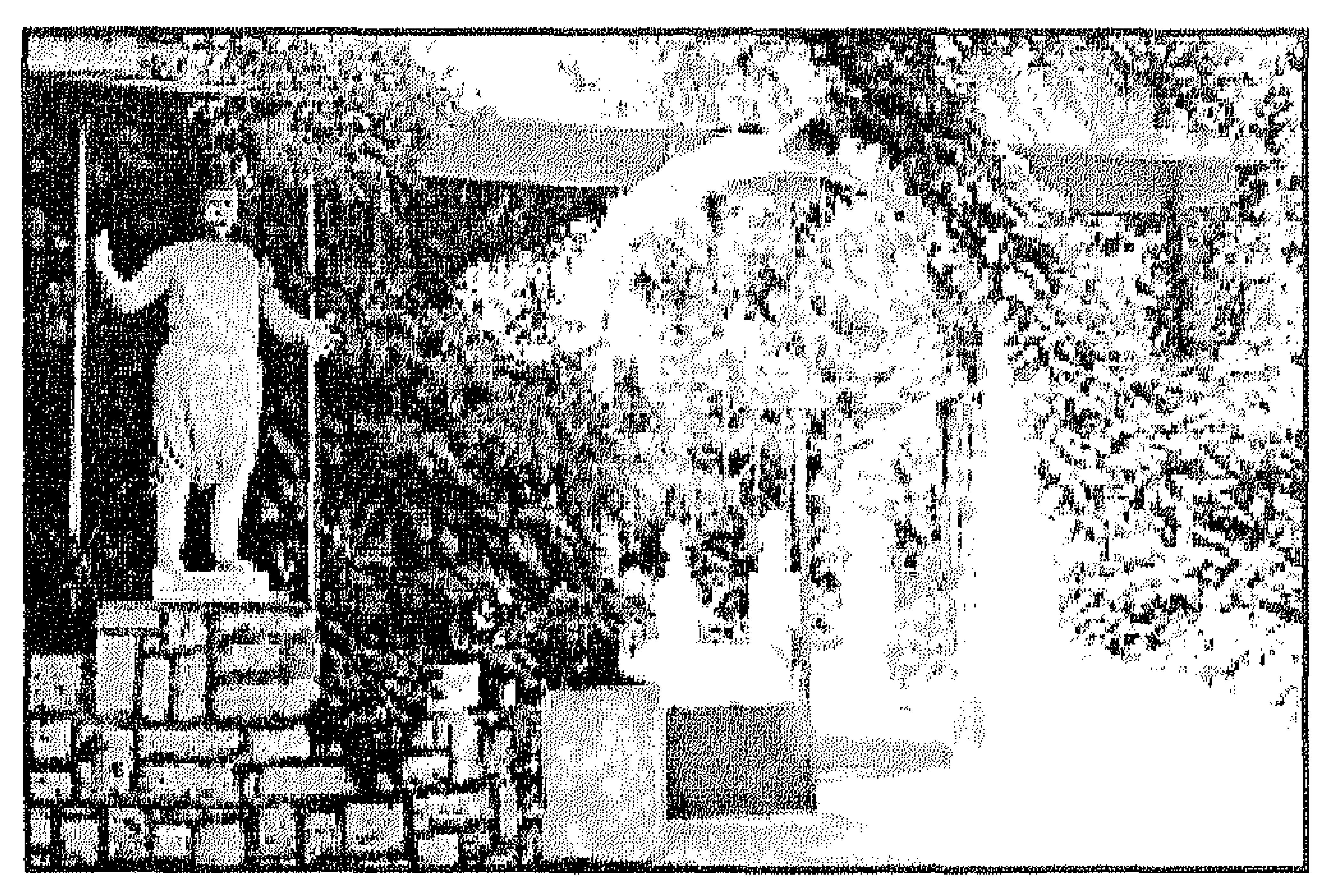
استَسلمَ لمشِيئةِ القَدَر، فَلم يَنْقَطِعْ يَومًا عَن الرّسْم والكِتابةِ، واستَطَاعَ أنْ يُصدِر عَلَى التَوَالي في اللُّغَة الإنجليزية: رَمل وزَبَد (١٩٢٦م)، يسوع ابن الإنسان (١٩٢٨م)، آلهة الأرض (١٩٣١م سنة وَفَاته) وصَدَر «التَائِه» سنة ١٩٣٢م، أَي بَعدَ وَفَاتِه بِسَنةٍ وَاحِدة. و«حَدِيقَة النَبيّ» سنة ١٩٣٣م.

لكنّ طَاقةَ جِسْمَه اسْتَنفَذَهَا جُبران في عَمَلِه المُرهَق، فَلفَظَ أَنْفَاسَه الأَخِيرة في ١٠ من نيسان (أبريل) سنة ١٩٣١م، ونُقل جُثمانُه صَيفَ ذَلِكَ العَام إلَى مَسقَط رَأسَه بشرّي، بِنَاءً عَلَى وَصيّته. وكَانت رَقدَتُه الأَخِيرةُ في صَومَعةِ دِير مَار سَركِيس المُطّلةِ عَلَى الوادي المُقدّس.

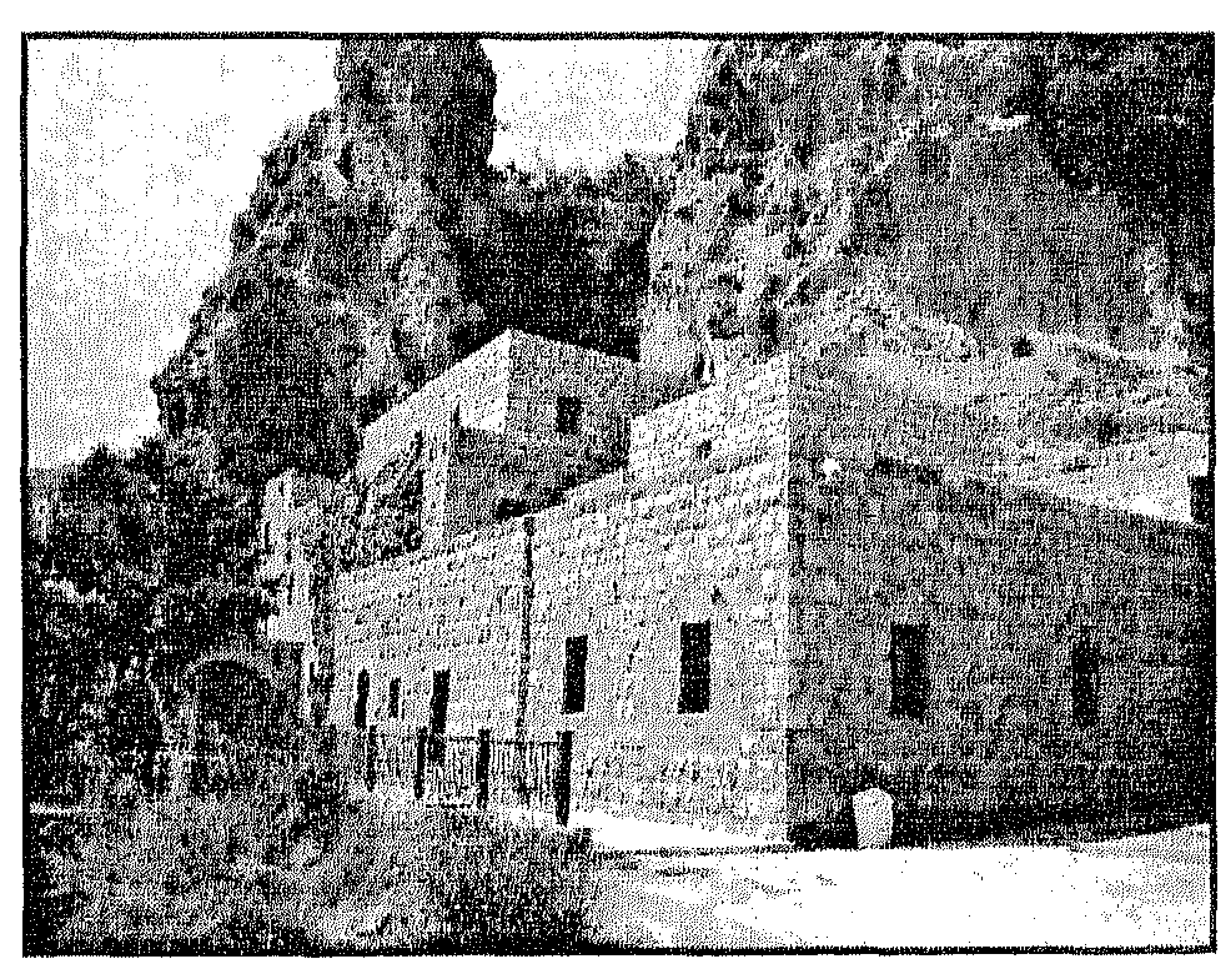
□□□



جبران في مدرسة الحكمة - بيروت



منزل جبران في بشري



قبر جبران ومتحفه في غابة مارسركيس

الأجنحة المتكسرة

تعريف:

صدرت هذه القصة الطويلة، أو الرواية، في مطلع سنة ١٩١٢م في منشورات «مرآة الغرب» وقدّمها إلى ماري هاسكل وكتب على النسخة الأولى التي قدّمها لها: هي تعبير عن سنة ١٩١١م المباركة، أي السنة التي تصارحا خلالها الحبّ.

قبل ظهور هذه القصّة التي رواها جبران بصيغة المتكلّم، وهي في الحقيقة تمتُّ بصلة دقيقة بحياته الخاصة، حدّث جبران عنها ماري هاسكل مؤكدًا لها أنه غريب عن أحداث هذه الرواية، قال لها: «الكتّاب يخلقون شخصياتهم وفي خبرتهم، أمّا أنا فلا، الأشخاص والحوادث كلّها من خلقي. وأنا على يقين بأن أي كتاب يسرد قصة شاب يستيقظ على الحياة مع قصة حبّ، جدير بأن يدعي سيرة ذاتية. الكاتب يتخذ أحيانًا صفة المتكلّم. إني أحب سلمى كرامه لأنها شخص حقيقي بالنسبة إليّ».

وأخبرها أنه وضع تصميمه قبل سفره إلى باريس ثم نقّح صيغته

الأولى في صيف سنة ١٩١١م. وأكد لها: «وكنتِ أنتِ معه (أي الكتاب) على الدوام. وهكذا أنت أمّه بشكل ما».

الرواية فنّ مستحدث في الأدب العربيّ، من حيث مفهومها الشائع في هذا العصر. أي عمل خياليّ قد يُستوحَى من الواقع، يقوم على سرد أحداث ومغامرات في تسلسل منطقي وبروز أشخاص من خلال دراسة نفسيّة معمّقة. وغايته درس عادات وتقاليد وأخلاق، وتحليل عواطف أو شهوات، وإبداء نظرات شخصية حول الإنسان وقضاياه الكبرى بدون تدخل مباشر من الراوي.

الأجنحة المتكسّرة هي أولى المحاولات الروائية[1] سبقت ظهور «زنبقة الغور» لأمين الريحاني، و«زينب» لمحمد حسين هيكل بسنتين.

موضوع الرواية:

بطلها شاب في الثامنة عشرة يروي حكاية حبّه الأوّل. وبطلتها سلمى كرامه فتاة في العشرين. أيقظت روح حبيبها بجمالها وجمعت بينهما وحدة الشعور الرومانسي على طريقة لامارتين. زار بطل

(١) كان لفرح أنطون بعض المحاولات المتعثرة في هذا المجال، وكذلك لسليم البستاني قبله.

الرواية صديقًا له فالتقى عنده شيخًا جليلاً يدعى فارس كرامه، والد سلمى، وصديق أبيه فدعاه إلى زيارته.

لبّى الدعوة. وما هي دقائق حتى ظهرت صبية بثوب حريريّ أبيض وأدخلت معها روحًا علوية تفرض التهيُّب. فكانت بداية حبّ عميق.

إلاَّ أن هذا الحبّ الصادق لم يُكتب له النجاح لأن سلمى أُرغمت على الاقتران بابن شقيق المطران، بدون رضا أبيها لأن «أي رجل يخرج عن طاعة رئيس دينه في الشرق ويبقى كريمًا بين الناس»؟

وها هي ذي سلمى تستسلم إلى قدرها عبدة ذليلة. فما مرّ شهر العسل، حسب زعم الناس، إلاّ وخلّف وراءه شهور خلّ وعلقم. أمّا الحبيب الأوّل فنام على عذابه المعنويّ العذب محولاً هواه إلى ما يشبه العبادة ونحيب فؤاده إلى صلاة.

وقاست سلمى الأمرَّين في بيتها الزوجيّ خانقة شعورها تنتظر الموت كسبيل خلاص. ومرض أبوها وجاء البطل يعوده فالتقى سلمى بعد غياب طويل فتهمس إليه مضطربة: «في هذا المكان جمعنا الربيع في قبضة الحب، وفي هذا المكان يجمعنا الآن أمام عرش

الموت». فصبّرها، وهو إلى الصبر أحوج وقال لها: «أفيعطي الفقير الجائع خبزًا للجائع الفقير»؟ ولفظ العليل أنفاسه الأخيرة والحبيبان يتناجيان.

وضاقت الوحشة بسلمى حتى أرتها جوَّ المقابر المرمرية في قصرها الزوجيّ ولم تجد لها مخرجًا إلاَّ بالانفتاح إلى حبيبها، فكانت تجتمع إليه سرًّا في معبد مهجور.

لم تجد سلمى في هذا اللقاء العارَ الذي يزعمه الناس، لأن النفس إذا تطهَّرت بالنار تتحرَّر من عبودية الشرائع التي تأسر العواطف الصادقة.

أثار اجتماع سلمى بعشيقها شكوك زوجها. فاضطُرَّت إلى قطع علاقته بها، رغم قساوة هذه التضحية. ولما أعلنته قرارها جزع وطلب إليها أن ترحل معه إلى ما وراء البحار فأبت وقبَّلته بعد أن عاهدته على أن تبقى حبيبته إلى الأبد ولو من بعيد.

واستمرَّت سلمى في صراع بين واقعها وأحلامها، إلى أن حملت بطفل أضاء جوّها القاتم.

لكن هذا الطفل لم يـرَ النـور إلاَّ سـاعات. وكانـت هـذه المأسـاة ضربة قاضية عليها.

لقد ضمّن جبران كعادته نقمته الصارخة عـلى الـشرائع البـشرية التي يعتبرها سخيفة لأنها من صنع الإنسان، بينما شريعة الحب أقـوى لأنها شريعة سماوية. وأعلن ثورته على الأكليروس والأثريـاء الـذين يستبيحون كل شيء في سبيل تحقيق غاياتهم الدنيئة.

أصداء الكتاب:

كان لـ «الأجنحة المتكسّرة» صداه الحسن في الأوسـاط الأدبيـة، ولدى ذوي الأفكار المتحررة سواء في أسـلوبه الكتـابي المتطـور أم في معالجته قضايا اجتماعية حساسة. إلاَّ أن السخط العـارم، الـذي كـان قـد أثـاره كتابـه «الأرواح المتمـردة» بعـد «عـرائس المـروج» لـدى المحافظين ورجال الدين، ازداد عنفًا.

كانت ميّ زيادة قد أُعجبت بهذا الكتاب فأطرت نهجـه الطريـف ولهجته الـصادقة، لكنهـا اعترضـت عـلى مفهـوم الكاتـب للـزواج، فوجهت إليه رسالة حملت رأيها جاء فيها:

«إننا لا نتفق حول موضوع الزواج. أنا أحترم أفكارك لأني أعرفك صادقًا في الدفاع عنها وأشاركك في المبدأ الأساسيّ القائل بحريّة المرأة، فكالرجل يجب أن تكون حرّة بانتخاب زوجها، ولكن حين تختار شريكًا لها عليها أن تتقيَّد بواجباتها.

وتنتهي إلى هذه الخلاصة: إن المرأة باجتماعها السرّي مع حبيبها، مهما كان طاهرًا، تخون زوجها وتخون الهيئة الاجتماعية... عند الزواج تَعِدُ المرأة بالأمانة، والأمانة المعنوية تضاهي الأمانة الجسدية أهمية».

نقد الكتاب:

لا تستكمل «الأجنحة المتكسّرة» شروط الرواية من وجوه عدّة أهمّها:

- لا حبكة فيها يدعمها تسلسل منطقي ولا عقدة. وهي تفتقر إلى عنصر التشويق، فمنذ البداية يشعر القارئ بما ستنتهي إليه.

- بطلا الرواية يتحدثان بلسان جبران حين لا يتدخل جبران مباشرة في إبداء آرائه الثورية.

- الطابع الوجداني يطغى عليها بحيث يجعلها تبدو كأنها سلسلة

اعترافات وجيعة.

- يختلط السرد بالانطلاقات الغنائية، والاستطرادات البعيدة عن الموضوع.

- تكرار الجمل مما يدل على نقص في المفردات، وكذلك بعض التشابيه والتعابير.

لكنّ هذا الكتاب، بحد ذاته وبصرف النظر عن كونه رواية، يتميز بالتشابيه المبتكرة والصور الرمزيّة والاستعارات الطريفة. ففي بعض الصفحات لوحات قلميّة ملوّنة تثير الإعجاب بدقّتها منها مثلاً: «جلست قبالتي على مقعد موشّى بنسيج من الحرير الأخضر، فبانت بأثوابها الناصعة كزنبقة لوت قامتها نسمات الصباح على بساط من الأعشاب».

وفيه أوصاف رائعة، لا سيّما للأم وللطبيعة وللجمال منها هذه النماذج:

«إن أعذب ما تحدّثه الشفاه البشرية لفظة الأم... كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحبّ وكل ما في القلب البشريّ من الرقة

والحلاوة والعذوبة... هي التعزية في الحزن، والرجاء في اليأس، والقوة في الضعف».

«كل شيء في الطبيعة يرمز إلى الأمومة، فالشمس هي أُمُّ هذه الأرض ترضعها حرارتها وتحتضنها بنورها... هي أُمُّ الأشجار والأزهار...».

«الجمال الحقيقيّ أشعَّة تنبعث من قدس أقداس النفس وتنير خارج الجسد مثلما تنبثق الحياة من أعماق النواة، وتكسب الزهرة لونًا وعطرًا».

يتميز الأسلوب الجبراني أيضًا في هذا الكتاب برونق الإيقاع، رغم الأفعال والنعوت غير المطابقة أحيانًا.

أهداف الكاتب:

مسرح «الأجنحة المتكسّرة» هو شمال لُبنان وبيروت، كما مسرح سائر أقاصيصه. وقد عاش جبران بين هاتين المنطقتين وخبر أجواءهما الاجتماعية، فثار على ما يعكّرهما. وقد ركّز ثورته بنوع خاص على المجتمع الشرقيّ الذي يسوده الإقطاع ورجال الدين،

وعلى التقاليد والشرائع التي تجعل من الزواج مجرّد عملية تجارية لا دخل للمرأة في عقده.

يقابل هذه الثورة تمجيد للحب وللجمال وللحريّة وللطبيعة.

ولجبران هنا رأي في الحبّ:

الحب في نظره، مصدر السعادة والنور، هو الخبز المقدّس الذي يغذّي الروح ويحرّر ويرفع فلا يجوز بالتالي أن يقيّد. هو أقوى من الشرائع، وأقوى حتى من الموت، لأنه سرّ الحياة المتجددة عبر تناسخ الأرواح. عقد الزواج الذي سنّه البشر لا قيمة له بالنسبة إلى تعاقد قلبين حسب سنّة الطبيعة. الحبّ يهب أجنحة تطير بالعاشقينَ إلى ما وراء الغيوم ليروا العالم السحريّ.

ويتخذ الحب الجبراني بعدًا ميتافيزيقيًا. إنه قدرٌ، تدبير سماويّ: المحبة الحقيقية – وجبران يخلط بين المحبة والحبّ- هي ابنة التفاهم الروحيّ وإن لم يتمّ هذا التفاهم بلحظة واحدة لا يتمّ بعام كامل ولا بجيل كامل» لأن الحبيبين كانا واحدًا في الله ثم انفصلا، فسعى كل شطر منهما إلى الآخر إلى أن يتوحّدا ويتكاملا. إنها نظرية التوأمين في الحبّ، وقد عبّر عنها جبران بقوله: «كأن الآلهة قد جعلت كل واحد

منّا نصفًا للآخر يلتصق به بالظهر فيصير إنسانًا كاملاً، وينفصل عنه فيشعر بنقص موجع في روحه».

في الميتولوجيا اليونانية، كما في مذهب الإشراق، إن العاشقين متَّحدان أصلاً في الله ثم يفترقان بعد الولادة ثم يجمعهما الحبّ من جديد فيعيد إليهما وحدتهما الأساسية.

الطبيعة في عرف جبران تعني الحريّة بقدر ما تعني الحبّ، لأن الحبّ لا ينمو ولا يثمر إلا في جِواء حرّة. يوم قيّد الإنسان كائنات الطبيعة قيّد نفسه، فإذا هو في ظل تقاليده الموروثة وشرائعه الخانقة يحيا مستعبدًا: «دخلتُ منازل الأغنياء الأقوياء وأكواخ الفقراء الضعفاء، فرأيت الأطفال يرضعون العبودية مع اللبن».

***

الأجنحة المتكسّرة

إلى التي تُحدِّق إلى الشمس بأجفان جامـدة، وتقبض على النـار بأصـابع غـير مرتعـشة، وتـسمع نغمـة الـروح «الكـلي» مـن وراء ضجيج العميـان وصراخهـم. إلى M.E.H أرفع هذا الكتاب.

جبـــران

توطئـــة

كنتُ في الثامنةَ عشرةَ عِندمَا فتحَ الحبُّ عَينيَّ بأشعَّتِهِ السحريَّةِ، ولَمَسَ نَفسِي لأوَّلِ مرَّةٍ بأصَابِعِهِ النَارِيَّة. وكانَتْ سَلمى كرامة المَرأةَ الأُولى التي أيقظَتْ رُوحي بمَحَاسِنِها. ومشَتْ أمامِي إلى جَنَّةِ العَواطِفِ العُلوِيِّة حَيثُ تمرُّ الأيامُ كالأحلامِ وتَنقَضِي الليَالي كَالأعرَاسِ.

سَلمى كَرامة هي التي عَلَّمَتْني عِبادةَ الجَمالِ بجَمالِها، وأرَتْني خَفَايا الحُبِّ بانعِطَافها[1]، وهيَ التي أنشدَتْ على مَسمَعِي أوّلَ بَيتٍ من قَصيدةِ الحَياةِ المَعنَويّة.

أيُّ فتىً لا يذكُرُ الصبيّةَ الأُولى التي أبدَلَتْ غَفلةَ شَبيبتِه بيقظَةٍ هَائلةٍ بلُطفِها، جَارحَةٍ بعُذُوبتِها، فَتّاكةٍ بحَلاوتِها؟ مَن مِنّا لا يَذُوبُ حَنينًا إلى تِلكَ السَاعةِ الغريبةِ التي إذَا انتَبهَ فيهَا فَجأةً رأى كلِّيّتَه قدِ انقَلبَتْ وتحوَّلَتْ، وأعماقَه قد اتَّسَعَتْ وانبسَطَتْ وتبَطَّنَتْ بانفَعالاتٍ لَذيذةٍ بكلِّ مَا فيهَا من مَرارةِ الكِتمانَ، مُستَحَبَّةٍ بكلِّ مَا يَكتنفُها من

(١) انعطافها: المقصود عطفها. وهي أصوب لسياق الكلام.

الدُموعِ والشَوقِ والسُهاد؟

لكلِّ فَتىً سَلمى تظهرُ على حِينِ غَفلةٍ في ربيعِ حَياتِه. وتجعَلُ لانفرادِهِ مَعنًى شِعريًّا وتُبدِّلُ وحْشةَ أيّامِه بالأُنسِ، وسَكينةَ لَياليهِ بالأَنغَام.

***

كنتُ حَائرًا بينَ تَأثيراتِ الطَبيعةِ ومُوحِيَاتِ الكُتبِ والأَسفارِ عِندَما سَمعتُ الحُبَّ يهمسُ بَشفتَي سَلمى في آذانِ نَفسِي، وكانَت حَياتي خَاليةً مُقفِرةً بَاردَةً شبيهةً بسُباتِ آدمَ في الفِردَوسِ عندَما رَأيتُ سَلمى مُنتصبةً أمَامِي كعَمُودِ النور[1]. فسَلمى كَرامة هي حوّاءُ هَذا القَلبِ المملوءِ بالأسرَارِ والعَجائِبِ، وهي التي أفهمَتْهُ كُنهَ[2] هذا الوجودِ وأوقفَتْهُ كالمِرآة أمَامَ هذه الأَشبَاح. حوّاءُ الأُولى أخرَجَتْ آدمَ مِنَ الفِردَوسِ بإرادتِها وانقِيادِهِ. أمَّا سَلمى كرامة فَأدخَلَتْني إلى جَنّةِ الحُبِّ والطُهرِ بحَلاوتِها واستِعدَادي، ولكن مَا أصَابَ الإنسَانَ الأوّلَ قد أصَابنَي، والسَيفُ النّاريُّ الذي طردَه من الفِردَوسِ هُو كالسَيفِ

(١) الصواب: كعمود نور.
(٢) كنه: سِرّ.

الذي أخافَني بلمَعَانِ حَدِّهِ، وأبعَدَني كُرهًا عَن جَنَّةِ المَحبَّة قَبل أنْ أُخَالِفَ وصيّةً، وقَبلَ أن أذوقَ طَعمَ ثِمارِ الخَير والشَرّ.

واليَومَ وقد مَرَّتِ الأعوَامُ المُظلِمَةُ طَامسةً بأقدامِهَا رُسومَ تِلكَ الأَيّام[1]، لَم يبقَ لي مِن ذَلكَ الحُلمِ الجَميل سِوى تذكَاراتٍ مُوجِعةٍ تُرفرفُ كالأَجنحَةِ غَيرِ المَنظورَةِ حَولَ رَأسِي مُثيرةً تَنَهُّداتِ الأسَى في أعمَاقِ صَدري مُستَقطِرَةً دُموعَ اليَأسِ والأَسَفِ من أجفَاني... وسَلمى- سَلمى الجَميلةُ العذبَةُ قد ذهبَتْ إلى مَا ورَاءِ الشَفَقِ الأزرَقِ وَلم يَبقَ من آثارِها في هَذا العَالَمِ سِوى غَصَّاتٍ أليمَةٍ في قَلبي، وقَبرٍ رخاميٍّ مُنتصبٍ في ظِلالِ أشجَار السَرْوِ. فذَلك القبرُ وهذَا القَلبُ هُما كُلُّ مَا بقيَ لِيُحدِّثَ الوُجودَ عن سَلمى كَرامة. غَيرَ أنَّ السَكِينةَ التي تَحفِرُ القُبورَ لا تَفشي ذَلك السِرَّ المَصونَ الذي أخفَتْهُ الآلهةُ في ظُلُمَاتِ التَابوت، والأغصَانَ التي امتصَّتْ عنَاصرَ الجَسَدِ لا تُبيحُ بحَفيفها مَكنُونَاتِ الحُفرة، أمّا غصَّاتُ هَذَا القَلبِ وأوجَاعُه فهي التي تَتكلَّمُ، وهي التي تَنسَكبُ الآن مَعَ قَطراتِ الحِبرِ السَوداءِ مُعلنةً للنورِ أشبَاحَ تِلكَ المأسَاةِ التي مَثَّلها الحُبُّ والجَمالُ والمَوت.

---

(١) طامسةً: مخبّئة؛ ماحيةً؛ رسومَ: آثار.

فَيا أصدِقاءَ شَبيبتِي المُنتشِرينَ في بَيروتَ، إذَا مَرَرْتُم بِتلكَ المقبرةِ القَريبةِ من غَابَة الصَنوبَرِ فادخُلُوها صَامِتِينَ، وَسِيرُوا بِبُطءٍ كَيلا تُزعِجَ أقدَامُكم رُفاتَ الرَاقِدِينَ تحتَ أطبَاقِ الثَرى، وَقِفُوا مُتهيِّبِينَ بجَانبِ قَبرِ سَلمى وحَيُّوا عَني التُرابَ الذي ضَمَّ جثمانَها ثُمَّ اذكرُوني بتَنهدةٍ قَائلينَ في نفُوسِكم: هَهُنا دُفِنَتْ آمالُ ذَلكَ الفتَى الذي نَفَتْهُ صُروفُ الدَهرِ[1] إلى مَا ورَاءِ البِحارِ، وهَهُنا تَوارَتْ أمَانيهِ وانزَوَتْ أفرَاحُه وغَارَتْ دمُوعُه واضمَحَلَّتِ ابتسَامَاتُه، وبينَ هَذِه المَدافِنِ الخَرسَاءِ تَنمُو كآبتُه مَع أشجَارِ السَروِ والصَفصَافِ. وفَوقَ هَذَا القَبرِ تُرفرفُ روحُه كلَّ لَيلةٍ مُستأنِسَةً بالذِكرَى، مُرَدّدةً مع أشبَاحِ الوَحشَةِ نُدْباتِ[2] الحُزنِ والأسَى، نَائحةً مَعَ الغُصُونِ على صَبيةٍ كانَت بِالأَمسِ نغمةً شَجيّةً بينَ شَفَتَي الحَياةِ فأصبَحَتِ اليَومَ سِرًّا صَامِتًا في صَدرِ الأَرضِ.

أَستَحلفُكُم يَا رفاقَ الصِبَا بالنسَاءِ اللَواتي أَحبَّتْهُنَّ قلوبُكُم أن

(١) صروف الدهر: أحداثه.

(٢) نُدبات: ج نُدْبة: ما يُقال في المآتم من أناشيد اللوعة والأسى يُعَدَّد فيها محاسنُ الفقيد وهي هنا بمعنى: أغاني الحزن.

تضَعُوا أكَاليلَ الأزهَارِ على قَبرِ المَرأةِ التي أحبَّها قَلبي؛ فَرُبَّ زَهرةٍ تُلقُونَها على ضَريحٍ مَنسِيٍّ تكونُ كَقَطرةِ النَدَى التي تَسكُبُها أجفانُ الصَباحِ بينَ أوراقِ الوَردةِ الذَابِلة.

***

الكآبة الخرساء

أنتُم أيُّها الناسُ تذكُرونَ فَجرَ الشَبيبةِ فَرحينَ باسترجَاعِ رُسُومه مُتأسِّفِينَ على انقِضَائِه، أمَّا أنَا فأذكُرُه مِثلَما يَذكرُ الحرُّ المُعْتَق جُدرانَ سِجنِه وثِقلَ قُيودِهِ. أنتُم تَدعُونَ تِلكَ السِنينَ التي تَجيءُ بَينَ الطُفُولةِ والشَبَابِ عَهدًا ذَهبيًّا يَهزأ بِمتَاعِبِ الدَهرِ وهَواجسِهِ ويَطيرُ مُرفرفًا فَوقَ رُؤوسِ المَشَاغِلِ والهُمُوم مثلَما تجتَازُ النحلَةُ فَوقَ المُستنقَعاتِ الخَبيثَةِ، سَائرةً نَحو البسَاتينِ المُزهِرَة؛ أمَّا أنَا فَلا أستَطِيعُ أن أدعوَ سِنيّ الصِبَا سِوَى عَهدِ آلام خَفيَّةٍ خَرسَاءَ كَانت تَقطُنُ قَلبي وتَثورُ كَالعَواصِفِ في جَوانِبِه، وتَتكاثَرُ نَامِيةً بِنُمُوِّه ولم تَجِدْ مَنفَذًا تَنصَرِفُ منه إلى عَالَمِ المَعرفَةِ حتَّى دخَلَ إليهِ الحُبُّ وفَتحَ أبوَابَه وأنَارَ زَوايَاه، فَالحبُّ قد أعتَقَ لِسَاني فتكَلَّمْتُ، ومَزّقَ أجفَاني فبَكَيْتُ، وفَتحَ حُنجَرتي فتنهَّدْتُ وشَكَوْتُ.

أنتُم أيُّها الناسُ تَذكُرون الحُقُولَ والبَسَاتينَ والسَاحَاتِ وجَوانبَ الشَوارعِ[1] التي رَأَتْ ألعَابَكم وسَمِعَتْ هَمْسَ طُهرِكُم، وأنَا أيضًا

(١) الصواب: ساحات الشوارع وجوانبها.

أذكرُ تِلكَ البُقعةَ الجَميلةَ مِن شَمالِ لُبنَانَ، فما أغمَضتُ عَينيَّ عَن هَـذَا المُحيطِ إلاَّ ورَأيتُ تِلكَ الأَودِيةَ المَملوءَةَ سِحرًا وهَيبةً، وتِلـكَ الجِبـالَ المُتعَاليةَ بالمَجدِ والعَظَمَةِ نَحوَ العَـلاءِ، ولا صَـمَمْتُ أُذُنيَّ عـن ضَـجَّةِ هَذَا الاجـتماعِ إلاَّ وسَـمعتُ خَريـرَ تِلـكَ الـسَواقِي، وحَفيـفَ تِلـكَ الغُصونِ. ولكنَّ هذه المحَاسنَ التي أذكرُها الآنَ وأتشوَّقُ إليهَا تَشَوُّقَ الرَضيعِ إلى ذِرَاعَيْ أُمِّه، هي هي التِي كَانت تُعذِّبُ رُوحِـي المَـسجُونَة في ظُلمَةِ الحَداثةِ مِثلَما يَتعذَّبُ البَازيُّ بينَ قُضبَانِ قَفَـصِهِ عِنـدَما يَـرَى أسرَابَ البُزَاة تَسبَحُ حُرّةً في الخَلاءِ الواسـعِ؛ وهـيَ التِـي كَانـت تَمـلأُ صَدري بِأوجَـاعِ التَأمُّـل ومَـرارةِ التَفكـيرِ، وتَنسُجُ بِأصـابعِ الحَـيرةِ والالتبَاسِ نِقَابًا[1] مِنَ اليَأسِ والقُنُوطِ حَول قَلبـي. فَلـم أَذهَـبْ[2] إلى البَرِّيَّة إلاَّ وعُدتُ مِنها كَئِيبًا جَاهِلاً أَسبَابَ الكَآبَة، ولا نَظـرتُ مـسَاءً إلى الغُيومِ المتَلَوِّنَةِ بِأشعَّةِ الشَمسِ إلاَّ وشَعرتُ بانقِبَاضٍ مُتلِـفٍ يَنمُـو لجَهـلي مَعَـانيَ الانقِبَـاضِ، ولا سَـمِعتُ تغريـدَةَ الـشُحرورِ أو أُغنيـةَ الغَديرِ إلاَّ وقَفتُ حَزينًا لجَهلي مُوحِيَاتِ الحُزن.

يقُولونَ إنَّ الغَبَاوةَ مَهدُ الخُلُوِّ، والخُلُوَّ مَرقدُ الرَاحَة –وقَـد يَكُـونُ

(١) نقابًا: حجابًا.

(٢) كان من الأفضل لو قيل: فما ذهبت إلى البريّة إلا لكي يحصلَ التناغم والتناسب في الجملةِ كلها.

ذَلكَ صَحيحًا عِندَ الذينَ يُولَدون أَمواتًا ويَعيشُونَ كَالأجسَادِ الهَامِدَةِ[1] البَاردةِ فَوقَ التُرابِ، ولكنْ إِذَا كَانتِ الغَباوةُ العَمياءُ قَاطنةً في جِوارِ العَواطفِ المُستَيقظَةِ تَكونُ الغَباوةُ أقسَى من الهَاويةِ وأَمرَّ من المَوت. والصَبيُّ الحسَّاسُ الذي يَشعُرُ كَثيرًا ويَعرِفُ قَليلاً هُو أتعسُ المَخلوقَاتِ أمَامَ وَجهِ الشَمسِ لأَن نَفسَه تَظلُّ واقِفَةً بينَ قُوَّتَيْنِ هَائِلتَيْنِ مُتبَاينتَين: قوّةٍ خَفيّةٍ تُحلِّقُ بِه السَحَابِ وتُريهِ محَاسِنَ الكَائنَاتِ مِن وَرَاء ضَبابِ الأَحلاَمِ، وقُوّةٍ ظَاهِرةٍ تُقيِّدُه بِالأَرضِ وتَغمُرُ بَصيرتَه بِالغُبارِ وتَترُكُه ضَائِعًا خَائِفًا في ظُلمةٍ حَالِكَة.

للكَآبةِ آيادٍ حَريريّةُ المَلامِسِ قَويّةُ الأعصَابِ تَقبِضُ على القُلوبِ وتُؤلِمُها بِالوَحدة. فَالوَحدةُ حَليفةُ الكَآبةِ كَمَا أَنّها أليفةُ كلِّ حَركةٍ رُوحيّة. ونَفسُ الصَبيِّ المُتَصبةُ أمَامَ عَواملِ الوَحدةِ وتَأثيراتِ الكآبةِ، شَبيهةٌ بالزَنبقةِ البَيضَاءِ عِندَ خُروجِهَا مِن الكِمَام[2] تَرتَعِشُ أمَامَ النَسيمِ، وتَفتَحُ قَلبَها لأَشعّةِ الفَجرِ وتَضُمُّ أوراقَها بِمرورِ أَخيلةِ المَساءِ، فَإنْ لم يَكُنْ للصَبيِّ مِن المَلاهِي مَا يُشغِلُ فِكرَتَه[3]، ومن الرِفَاقِ

---

(١) الهامدة: الخامدة، التي لا حراك فيها ولا حياة.
(٢) الكمام: جمع كِمّ وهو غلاف الزهرة أو الثمرة.
(٣) الصواب: فكره.

مَنْ يُشاركُه في المُيولِ، كانَتِ الحَيــاةُ أَمامَـه كَحبسٍ ضَيِّقٍ لا يُـرى في جَوانِبِهِ غَيرُ أنـوَالِ العَنَاكِـبِ[1] ولا يُسمَعُ مِـن زوَايَـاه سِـوى دَبيـبِ الحَشَرات.

أمَّا تِلكَ الكَآبةُ التِي اتَّبعَـتْ أيَّـامَ حَـداثَتي فَلـم تكُـن نَاتِجَـةً عَـن حَاجتي إلى المَلاهِي لأنَّها كَانَتْ مُتـوفِّرةً لَـديَّ، ولا عَـن افتِقَـارِي إلى الرِفَاقِ لأنَّني كُنتُ أجدُهم أينَما ذَهبـتُ، بَـل هـي مِـن أَعـرَاضِ عِلَّـةٍ طَبِيعيَّةٍ في النَفسِ كانت تُحبِّبُ إليَّ الوِحدَةَ والانفِراد، وتُميتُ في رُوحي المُيـولَ إلى المَلاهِـي والأَلعَـاب، وتخلَـعُ عَـن كَتفـيّ أجنحَـةَ الـصِبَا، وتَجعَلُني أمَامَ الوُجودِ كحَوضِ مِياهٍ بَينَ الجِبَالِ يَعكِسُ بهُدوئِهِ المُحزنِ رُسُومَ الأشبَاحِ وأَلوَانَ الغُيومِ وخُطوطَ الأَغصَانِ، ولكنَّه لا يجِدُ مَمـرًّا يَسيرُ فِيهِ جَدوَلاً مُترنِّمًا إلى البَحر.

هَكذَا كانت حَياتي قَبل أن أَبلُغَ الثَامنةَ عـشرةَ، فَتِلـكَ الـسنةُ هـي مِن مَاضِيَّ بمَقامِ القِمّةِ مِن الجَبـلِ، لأنَّهـا أوقفَتْنـي مُتـأمِّلاً تجـاهَ هَـذَا العَـالَمَ، وأرَتْنـي سُـبُلَ البَـشَرِ، ومُـروجَ مُيُـولِهم، وعَقَبـاتِ متَـاعِبِهم وكُهوفَ شَرائِعِهم وتقَاليدِهـم.

(١) العناكب: ج عنكبوت: حشرة تنسج من لُعابها خيوطًا تستخدمها لاقتناص فريستها.

في تِلكَ السَنةِ وُلدتُ ثَانيةً والمرءُ إنْ لم تَحبَلْ بِهِ الكَآبةُ ويَتمخَّضْ بِهِ اليَأسُ، وتضَعْهُ المحبّةُ في مَهدِ الأحلامِ، تَظَلَّ حَياتُه كصَفحةٍ خَاليةٍ بَيضَاءَ في كِتَابِ الكيَان.

في تِلكَ السَنةِ شَاهدتُ مَلائِكةَ السَماءِ تَنظرُ إليَّ مِن ورَاء أجفَانِ امرأةٍ جَميلة، وفِيهَا رَأيتُ أبَالِسةَ[1] الجَحيم يَضُجُّون ويتراكَضُون في صَدر رَجلٍ مُجرم. ومَن لا يُشَاهدُ الملائكةَ والشَياطِينَ في مَحَاسِنِ الحَياةِ ومَكروهَاتِها يَظلُّ قَلبُه بَعِيدًا عَنِ المَعرِفَة ونفسُه فَارغةً مِنَ العَواطِف.

***

(١) أبالسة: ج إبليس، وهم اسم للشيطان.

يد القضاء

كنتُ في بيروتَ في ربيعِ تِلكَ السَنةِ المَملوءَةِ بِالغَرائبِ، وكانَ نِيسانُ (أبريل) قد أنبتَ الأزهَارَ والأعشَابَ فظهَرَتْ في بسَاتِينِ المَدينةِ كأنَّها أسرارٌ تُعلنُها الأَرضُ للسَماء. وكانَت أشجَارُ اللَوزِ والتُفّاحِ قدِ اكتَسَتْ بِحُلَلٍ بَيضَاءَ مُعَطَّرَةٍ فبانَتْ بين المَنازلِ كأنّها حُورِياتٌ بِملابسَ نَاصِعَةٍ قد بَعَثَتْ بهنَّ الطَبيعةُ عَرائسَ وزَوجَاتٍ لأبنَاءِ الشِعرِ والخَيالِ.

الربيعُ جَميلٌ في كُلِّ مَكانٍ، ولَكنَّه أكثرُ مِن جَميلٍ في سُوريّا... الرَبيعُ رُوحُ إلهٍ غَيرِ مَعروفٍ تَطُوفُ في الأَرضِ مُسرعةً، وعندَما تبلغ سُوريا تسيرُ ببُطءٍ مُتَلفِّتَةً إلى الورَاءِ مُستأنِسَةً بِأرواحِ المُلُوكِ والأنبيَاءِ الحَائمةِ في الفَضاءِ، مترنّمةً مع جَداول اليَهوديَّةِ بأناشيدِ سُليمانَ الخالدةِ، مُردّدةً مع أرزِ لُبنانَ تذكَاراتِ المَجدِ القَديم.

وَبيروتُ في الرَبيعِ أجملُ مِنها في مَا بَقيَ من الفُصُولِ؛ لأنَّها تَخْلُو فيه مِن أوحَالِ الشِتاءِ وغُبارِ الصَيفِ، وتُصبحُ بين أمطَارِ الأوّل وحَرارةِ الثاني كصبيَّةٍ حَسناءَ قد اغتَسلَتْ بِمياهِ الغَديرِ ثُمّ جلسَتْ

على صَفَّتِهِ تُجفّفُ جَسدَها بأشعَّةِ الشَمس.

ففي يَوم من تِلكَ الأيَّام المُفعمَةِ بِأنفَاسِ نَيسانَ (أبريل) المُسكِرةِ وابتسَامَاتِه المُحيِيَةِ، ذَهبتُ لزيَارةِ صَديقٍ يسكُنُ بَيتًا بَعيدًا عَن ضَجَّةِ الاجتمَاع. وبينَما نَحنُ نتحدَّثُ راسِمين بالكَلام خُطوطَ آمالِنا وأمَانِينا دَخلَ عَلينا شَيخٌ جَليلٌ في الخَامسةِ والسِتِّينَ مِن عُمرِه تَدُلُّ مَلابسُه البَسيطَةُ ومَلامِحُهُ المُتجَعِّدَةُ على الهَيبةِ والوَقارِ، فوقفتُ احترَامًا. وقُبيل أن أُصافِحَه[1] مُسلِّمًا تَقدَّمَ صَديقي وقَال: حضرتُه فَارس أفندي كرامه. ثُمّ لفظَ اسمِي مَشفوعًا بِكلمَةِ ثَناءٍ، فَحدَّقَ إليَّ الشيخُ هُنيهَةً لامِسًا بِأطرَافِ أصَابِعِهِ جَبهتَهُ العَاليةَ المكلَّلَةَ بشَعرٍ أبيَض كالثلج كَأنَّه يُريدُ أن يستَرجِعَ إلى ذَاكرتِه صُورةَ شيءٍ قَديمٍ مَفقُودٍ، ثُمَّ ابتسَم ابتسَامةَ سُرورٍ وانعطَافٍ واقترَبَ مِنِّي قَائلاً: أنت ابنُ صَديقٍ حَبيبٍ قَديم صَرفتُ ربيع العُمرِ برفقَتِهِ، فَما أعظَمَ فَرحي بمَرآك وكَم أنا مُشتاقٌ إلى لِقَاءِ أبيكَ بشَخصِك»!

فتأثَّرتُ لكلامِهِ[2] وشَعرتُ بجاذبٍ خَفيٍّ يُدنِيني إليهِ بطُمأنينةٍ

(١) صافحه: سلّم عليه واضعًا كفّه في كفّه. بالتالي «مسلّمًا» حشو لا فائدة منه.

(٢) الصواب: فأثّر فيَّ كلامه.

مثلَما تَقودُ الغَريزةُ العُصفورَ إلى وَكرهِ قُبيلَ مَجيءِ العَاصِفَة. ولمَّا جَلسْنا أخذَ يقصُّ عَلينَا أحادِيثَ صَداقتِهِ لوالدي مُتَذكِّرًا أيَّامَ الشَبابِ التي صَرفَهَا بقُربهِ، تاليًا عَلى مَسامِعِنا أخبارَ أعوامٍ قضَتْ فكفَّنَها الدَهرُ بقَلبه وَقَبرَهَا في صَدره. إنَّ الشُيوخَ يَرجِعُون بالفِكرِ إلى أيَّامِ شَبابهم رُجُوعَ الغَريبِ المُشتاقِ إلى مَسقطِ رَأسِه، ويَميلُونَ إلى سَردِ حكَايَاتِ الصِبَا مَيلَ الشَاعرِ إلى تَنغِيمِ أبلغِ قَصَائِدِه، فهُم يَعيشُون بالروحِ في زَوَايا المَاضِي الغَابِر لأنَّ الحَاضِرَ لا يمرُّ بهم ولا يَلتَفِتُ، والمستقبلَ يَبدو لأعيُنِهم مُتَّشِحًا بِضَبابِ الزَوالِ وظُلمَةِ القَبر.

وبَعد ساعةٍ مَرَّتْ بَينَ الأحَاديثِ، والتَذكاراتِ مُرورَ ظِلِّ الأغصَانِ عَلَى الأعشَابِ، وقفَ فَارس كرامه للانِصرافِ، ولمَّا دَنوتُ مِنهُ مُوَدّعًا أخَذَ يَدي بيَمينهِ ووضَعَ شَمالَه على كَتِفِي قَائلًا: أنَا لم أرَ والدَكَ مُنذُ عشِرينَ سَنةً ولكنَّني أرجُو أن أستعيضَ عَن بُعادِه الطَويلِ بزيَاراتِك الكَثيرة.

فانحنيتُ شَاكرًا واعِدًا بِتتميمِ مَا يجِبُ على الابنِ نَحوَ صَديقِ أبيه.

ولمَّا خرَجَ فَارس كرامه استزَدْتُ صَاحبي مِن أخبَارِه فقَال بِلهجَةٍ

يُساوِرِها التَحذُّر: لا أعرفُ رجُلاً سِواه في بَيروتَ قد جعَلَتْهُ الثروةُ فَاضِلاً والفَضيلةُ مُثرِيًا. وهُو وَاحدٌ من القَليلينَ الذينَ يَجيئُونَ هذا العالَمَ ويُغادِرُونَه قَبلَ أن يُلامِسُوا بِالأذَى نَفسَ مَخلُوق، ولكنَّ هَؤلاءِ الرجَالِ يَكُونون غَالبًا تُعسَاءَ مَظلُومِينَ، لأنَّهم يَجهَلُون سُبُلَ الاحتيالِ التي تُنقِذُهُم مِن مَكرِ الناسِ وخُبثِهم. ولفَارسِ كرامه ابنةٌ وحيدةٌ تَسكُنُ معَه مَنزِلاً فَخمًا في ضَاحيةِ المَدينة، وهي تُشابِهُهُ بِالأخلاقِ وليسَ بينَ النسَاءِ مَنْ تُماثِلُها رِقّةً وجَمالاً، وهي أيضًا سَتكونُ تاعِسةً لأنَّ ثَروةَ والدِهَا الطَائلةَ تُوقِفُها الآنَ على شَفِيرِ هَاوِيَة مُظلمةٍ مُخِيفَة.

لفَظَ صَديقي الكَلماتِ الأخيرةَ وظهَرَتْ على مُحيَّاه لوائحُ[1] الغَمِّ والأسَفِ ثُمَّ زَاد قَائِلًا: فَارس كرامه شَيخٌ شَريفُ القَلبِ كَريمُ الصِفاتِ ولكنَّه ضَعيفُ الإِرادةِ يقودُه رِياءُ النَاسِ كَالأعمَى وتُوقِفُه مطَامِعُهم كالأخرس. أمّا ابنتُه فتخضعُ مُمتَثِلَةً لإرادَتِهِ الوَاهِنَةِ[2] على رَغمِ كُلِّ مَا في رُوحِهَا الكَبيرةِ من القُوَى والمَواهِب. وهَذَا هُو السِرُّ الكَامِنُ ورَاءَ حَياةِ الوَالِدِ وابنتِه. وقد فَهِمَ هذا السرَّ رَجلٌ يأتَلِفُ في شَخصِهِ الطَمعُ بِالريَاءِ والخُبثُ بالدهَاءِ، وهَذَا الرَجلُ هُو مُطرانٌ

(١) لوائح: بمعنى ملامح. وهي الأصوب في سياق الكلام.
(٢) الواهنة: الضعيفة.

تَسيرُ قبائِحُه بِظلِّ الإنجِيلِ فتظهَرُ للنَاسِ كَالفَضَائل. وهُو رَئيسُ دِينٍ في بلادِ الأديَانِ والمَذاهِبِ تَخافُه الأرواحُ والأجسَادُ وتَخُرُّ لدَيه سَاجدةً مِثلَما تَنحَني رِقابُ الأنعَامِ[1] أمَامَ الجَزَّار.

ولهذَا المطرانِ ابنُ أخٍ تَتصَارَعُ في نفسِه عَناصرُ المَفَاسِدِ والمَكارِهِ مِثلَما تَنقلِبُ العَقاربُ والأفَاعِي على جَوانِبِ الكُهُوفِ والمُستنقَعَات. وليسَ بَعيدًا اليَومُ الذي يَنتَصِبُ فيه المطرانُ بمَلابِسِه الحَبرِيَّة[2] جَاعِلاً ابنَ أخيهِ عن يَمينه وابنةَ فَارس كرامه عن شَمالِه، رَافِعًا بيدِه الأثيمةِ إكليلَ الزَواجِ فَوقَ رَأسَيْهما مُقيِّدًا بِسلاسِلِ التكهينِ والتَعزيم[3] جَسَدًا طَاهِرًا بِجيفةٍ مُنتِنَة، جَامِعًا في قَبضةِ الشَريعةِ الفَاسِدَة رُوحًا سَماوِيَّةً بِذاتٍ تُرابيَّةٍ، وَاضِعًا قلبَ النَهارِ في صَدر اللَيل.

هَذَا كُلُّ مَا أَستطيعُ أن أَقولَه لَكَ الآن عَن فَارس كَرامه وابنتِه فَلا تَسَلْني أَكثرَ مِن ذَلكَ لأنَّ ذكرَ المُصيبةِ يُدنِيها مِثلَما يُقرِّبُ الموتُ الخَوفَ مِنَ المَوتِ.

---

(١) الأنعام جمع نِعَم أي البقر والغنم أو الجمال.

(٢) ملابسه الحبرية: الملابس التي تقتضيها رتبته الدينية.

(٣) التكهين والتعزيم: الصلوات والأدعية والرُّتَبُ الدينية التي تُتلى في المناسبات المختلفة: الزواج، الولادة، الوفاة، العماد...

وحوَّلَ صَديقي وَجهَه ونظَرَ مِنَ النَافذةِ إلى الفَضَاءِ كأنّـه يَبحثُ عَن أسرَارِ الأيّامِ واللَيالي بَين دَقائقِ الأَثِير.

فَقُمتُ إذا ذَاك من مَكَاني، ولمَّا أخذتُ يدَه مُودِّعًا قُلتُ لـهُ: «غـدًا أزورَ فَارس كَرامه قِيَامًا بوَعدي لهُ واحتِرامًا للتذكَاراتِ التـي أبقَتْهـا صَدَاقتُه لوَالِدي.

فبُهتَ بي الشابُّ دَقيقةً وقَد تغـيَّرَتْ ملامِحُـه كـأنَّ كَلـماتي القَليلـةَ البَسيطةَ قد أوحَتْ إليه فِكرًا جَديدًا هَـائِلًا، ثُـمّ نظَـرَ في عَينـيَّ نِظـرةً طَويلةً غَريبة - نِظرةَ مَحبّةٍ وشَفقَةٍ وخَوفٍ- نِظرَةَ نَبـيٍّ يَـرَى في أعـمَاقِ الأروَاحِ مَا لا تَعرِفُه الأرواحُ، ثُمّ ارتَعَشَتْ شفتَاهُ قَليلاً ولكنَّـه لم يَقُـلْ شَيئًا، فَتركتُه وسرتُ نَحوَ البَابِ بَأفكارٍ مُتَضَعْضِعَةٍ، وقُبيلَ أن ألتَفِـتَ إلى الوَراءِ رَأيتُ عَينَيهِ مَا زالتَا تَتبعَانني بتلكَ النظـرةِ الغَريبـة - تِلـكَ النَظرةِ التي لم أفهَمْ مَعَانِيها حتَّـى عَتَقَـتْ نَفـسِي(١) مـن عَـالمِ المَقَـاييسِ والكَمِّيَةِ وطَـارَتْ إلى مَسَارحِ المَلإِ الأَعـلَى حَيـثُ تتفـاهَمُ القُلـوبُ بالنَظراتِ وتَنمُو الأروَاحُ بالتَفَاهُم.

***

(١) عتقَتْ نفسي: تحرَّرت نفسي.

في باب الهيكل

وبعدَ أيّامٍ وقَد مَللتُ الوَحدةَ وتَعِبَتْ أجفَاني من النَظَرِ إلى أوجُـهِ الكُتُبِ العَابِسَة، عَلوتُ مركَبَةً[1] طالبًا منزلَ فَارس كرامه، حتَّى إذَا مَا بَلغَتْ بي غَابةَ الصَنوبرِ حَيثُ يَذهبُ القَومُ للتنزُّهِ، حَوَّلَ السَائِقُ وُجهةَ فرسَيْه عنِ الطَرِيقِ العُموميَّةِ، فَسَارا خَببًا عَلَى ممَرٍّ تُظلّلهُ أشجَارُ الصفصَافِ، وتَتمايلُ على جَانبَيْهِ الأعشَابُ والدَوالي المُتعَرِّشَةُ، وأَزاهرُ نِيسانَ (أبريل) المُبتَسمةُ بثُغورٍ حَمراءَ كَاليَاقوتِ وزَرقَاءَ كَالزُمرُّدِ[2] وصَفراءَ كالذَهَب.

وبعد دَقيقةٍ وقفَتِ المَركَبةُ أمَامَ منزلٍ مُنفردٍ تُحيطُ بِهِ حَديقةٌ مُتراميةُ الأطرَافِ، تَتعَانقُ في جَوانِبِها الأغصَانُ، وتُعَطِّرُ فَضاءَها رَائِحةُ الوَردِ والفُلِّ واليَاسَمِينِ.

مَا سرتُ بِضعَ خُطواتٍ في تِلكَ الحَديقةِ حتَّى ظَهرَ فَارس كرامه في بَابِ المنزِلِ خَارجًا لِلقَائي، كأنَّ هَديرَ المَركبةِ في تِلكَ البُقعةِ المُنفردةِ

(١) المركبة: عَرَبَةٌ يجرُّها جوادان أو أكثر، ويقودها سائق يُدعى «الحوذيّ».
(٢) الزمّرد: حجر كريم شديد الخضرة، وليس أزرق.

قَد أعلنَ لهُ قُدُومي. فَهشَّ مُتَأهِّلاً[١] وقَادَني مُرحِّبًا إلى دَاخلِ الدَارِ، ونَظيرَ والدٍ مُشتاقٍ أجلسَني بقُربِهِ يحدِّثُني مُستفسِرًا عَن مَاضيَّ مُستَطلِعًا مَقاصِدي في مُستَقبلي، فكُنتُ أُجيبهُ بتلكَ اللَهجَةِ المُفعَمَةِ[٢] بنَغمةِ الأحَلامِ والأمَاني التي يَترنَّمُ بها الفِتيانُ قَبل أن تَقذِفَهم أمواجُ الخَيال إلى شَاطئِ العَملِ حَيثُ الجِهَادُ والنِزاعُ... للشَبيبةِ أجنحةٌ ذَاتُ رِيشٍ مِنَ الشِعرِ وأعصَابٍ مِنَ الأوهَامِ ترتَفعُ بالفتيَانِ إلى مَا ورَاءِ الغُيومِ فيرَوْنَ الكيانَ مَغمُورًا بأشعَّةٍ مُتلوِّنَةٍ بِألوانِ قوسِ قُزح، ويسمَعُونَ الحيَاةَ مُرتِّلةً أغانيَ المَجدِ والعَظَمَةِ. ولكنَّ تِلكَ الأجنحَةَ الشِعريةَ لا تَلبَثُ أن تُمزِّقَها عَواصِفُ الاختبَارِ فيهبِطُونَ إلى عَالَمِ الحَقيقَةِ، وعالَمُ الحَقيقةِ مِرآةٌ غَريبةٌ يَرى فِيهَا المرءُ نَفسَه مُصغَّرةً مُشوَّهَة.

في تِلكَ الدَقيقةِ ظَهرَتْ مِن سَتَائرِ البَابِ المُخمَليّةِ صَبيّةٌ ترتَدي أثوَبًا مِنَ الحَريرِ الأبيضِ النَّاعمِ ومشَتْ نَحوي ببُطءٍ، فوقَفْتُ ووقَفَ الشَيخُ قَائِلًا: هَذهِ ابنَتي سَلمى. وبَعدَ أن لفَظَ اسمِي شَفَعَهُ[٣] بِقولِه:

---

(١) ينبغي إضافة «بي» لأن تأهل معناها تزوج أو صار أهلاً.

(٢) المفعَمَة: المليئة.

(٣) شفعه: قَرَنَه، أتبعه.

إِنْ ذَاكَ الصَديقَ القَديمَ الذي حَجَبَتْهُ عنِّي الأَيَّامُ قَد عادَتْ فأَبانَتْه لي بشَخصِ ابنِه، فأنَا أَرَاه الآنَ ولا أراه. فَتقدَّمَتِ الصَبيَّةُ إليَّ وحَدَّقَتْ إلى عَينيَّ كَأنّها تُريدُ أن تَستَنطِقَهُما عن حَقيقةِ أمرِي، وتَعلَمَ مِنهُما أسبَابَ مجيئي إلى ذَلكَ المَكانِ، ثُمَّ أخذَتْ يَدي بيدٍ تُضارِعُ[1] زَنبَقةَ الحَقلِ بَياضًا ونُعومَةً، فأحسَسْتُ عِندَ مُلامَسةِ الأكفِّ بعَاطفةٍ غَريبةٍ جَديدةٍ أشبَه شيءٍ بِالفكرِ الشِعريِّ عِندَ ابتِداءِ تكوينِهِ في مُخَيِّلَةِ الكَاتِب.

جلَسْنا جَميعًا سَاكِتينَ كَأنَّ سَلمَى قَد أدخلَتْ مَعَها إلى تِلكَ الغُرفةِ رُوحًا عَلَوِيَّةً تُوعز[2] الصَمتَ والتَهيُّبَ، وكَأنَّها شَعرتَ بِذَلكَ فالتَفتَتْ نَحوي وقَالت مُبتَسمَة: كَثيرًا مَا حَدَّثني وَالدي عَن أَبيكَ مُعِيدًا عَلى مَسمَعي حِكَاياتِ شَبابِهما، فإن كَان والدُك قَد أسمَعَكَ تِلكَ الوقَائعَ لا يَكونُ هَذَا اللّقَاءُ هُو الأوّلَ بَينَنا.

فَسُرَّ الشَيخُ بِكلمَاتِ ابنتِه وانبَسطَتْ مَلامِحُهُ[3] ثُمَّ قَالَ: إن سَلمَى رَوحيَّةُ المُيولِ والمَذَاهب، فهي تَرى جَميعَ الأشيَاءِ سَابحَةً في عَالَمِ النَفسِ.

---

(١) تضارع: تزيد على، تضاهي.

(٢) أوعز إليه: أمره بكذا. الصواب: تفرض أو تثير.

(٣) انبسطت ملامحه: انفرجت ملامحه.

وهَكَذا عَاد فَارس كَرامه إلى مُحادَثتي باهتمام كُلّيٍّ ورِقَّةٍ مُتناهيةٍ كَأنّه وَجَدَ فيّ سِرًّا سِحرِيًّا يُرجِعُه على أجنِحَةِ الذِكرَى إلى رَبيعِ أيّامِهِ الغَابِرة.

كانَ ذَلكَ الشَيخُ يُحدِّقُ إليَّ مُسترجِعًا أشبَاحَ شَبابِهِ وأنَا أتأمَّلُهُ حَالِمًا بِمُستَقبلي، كَانَ يَنظرُ إليَّ مِثلَما تُخيِّمُ أغصَانُ الشَجرةِ العَاليةِ المَملوءَةِ بمآتي الفُصُولِ[1] فوقَ غَرسةٍ صَغيرةٍ مُفعَمَةٍ بِعَزْمٍ هَاجعٍ[2] وحَياةٍ عَميَاءَ. شَجرةٍ مُسنَّةٍ رَاسِخَةِ الأعرَاقِ قَدِ اختبَرَتْ صَيفَ العُمرِ وشِتاءَه ووقفَتْ أمَامَ عَواصِفِ الدَهرِ وأنَوائِه[3]؛ وغَرسةٍ ضَعيفَةٍ ليّنَةٍ لم ترَ غَيرَ الرَبيعِ ولم ترتَعِشْ إلاَّ بِمُرورِ نَسيمِ الفَجرِ.

أمّا سَلمى فكَانَت سَاكتةً تنظرُ إليَّ تَارةً وطَورًا إلى أبيهَا، كَأنّها تَقرأُ في وَجْهَيْنا أوّلَ فَصلٍ مِن رِوَايةِ الحَياةِ وآخرَ فَصلٍ مِنهَا.

قَضَى ذَلكَ النَهارُ مُتنهِّدًا أنفَاسَه[3] بَينَ تِلكَ الحَدائقِ والبَسَاتينِ وغَابتِ الشَمسُ تَاركةً قُبلةً صَفراءَ على قِمَمِ لُبنَانَ المُتعَاليةِ قُبالةَ ذَلكَ

---

(١) مآتي الفصول: ما تأتيه الفصول من ثمرٍ وجنى.
(٢) هاجع: نائم
(٣) أنوائِه: عواصِفِه.
(٤) كان الأصح قوله: لافظًا أنفاسه.

المنزلِ وفَارس كرامَه يتلُو عليَّ أخبَارَه فيُذهِلُني، وأنَا أترنَّمُ أمَامَه بأغَاني شَبيبتِي فأُطرِبُه، وسَلمى جَالسةٌ بِقُربِ تِلكَ النَافِذةِ تَنظرُ إلينَا بِعَيْنَيْها الحزينَتَيْنِ ولا تَتحرَّكُ، وتَسمَعُ أحاديثَنا ولا تَتكلَّمُ، كأنَّها عرَفَتْ أن للجَمالِ لُغَةً سَماويّةً تَترفَّعُ عَن الأصوَاتِ والمَقاطعِ التي تُحدِثُها الشِفاهُ والألسِنَةُ، لُغةً خَالدةً تَضُمُّ إليهَا جَميعَ أنغَامِ البَشَرِ، وتجعَلُها شُعورًا صَامِتًا مِثلَما تَجتَذِبُ البُحَيرةُ الهَادِئةُ أغَانيَ السَواقي إلىَ أعمَاقِها وتجعَلُها سُكوتًا أبَديًّا. إنَّ الجَمالَ سِرٌّ تَفهمُه أرواحُنا وتفرَحُ به وتنمُو بتَأثيراتِه، أمَّا أفكَارُنا فتقفُ أمَامَه مُحتارةً مُحاوِلةً تَحديدَه وتَجسِيدَهُ بِالألفَاظِ ولكنَّها لا تَستَطيعُ. هُوَ سِيَالٌ[1] خَافٍ عنِ العينِ يتموَّجُ بينَ عَواطفِ النَاظرِ وحَقيقةِ المَنظور.

الجَمالُ الحَقيقيُّ هو أشِعّةٌ تَنبعثُ من قُدسِ أقدَاسِ النفسِ وتُنيرُ خَارجَ الجَسد مِثلَما تَنبثقُ الحَياةُ مِن أعمَاقِ النَواةِ وتُكسِبُ الزهرَةَ لَونًا وعِطرًا؛ – هو تَفَاهُمٌ كُلِّيٌّ بَينَ الرَجُلِ والمَرأةِ يتُمُّ بلَحظَةٍ، وبلَحظةٍ يُولَدُ ذَلكَ المَيلُ المترفِّعُ عن جَميعِ المُيول، – ذلك الانعطَافُ الرُوحيُّ نَدعُوه حُبًّا.

(١) الصواب: سائل جمعه سوائل.

فهل فَهِمتْ رُوحي روحَ سَلمى في عَشيّةِ ذلكَ النَهارِ فَجعَلَني التفَاهُمُ أرَاهَا أجمَلَ امرأةٍ أمَامَ الشَمس، أم هِيَ سَكرةُ الشَبيبةِ التِي تَجعَلُنا نتخيَّلُ رسُومًا وأشبَاحًا لا حَقيقةَ لهَا؟ هَل أعمَتْني الفتوّةُ فتوهَّمتُ الأشعَّةَ في عينَيْ سَلمى والحَلاوةَ في ثَغرِها والرِقّةَ في قَدّهَا، أم هي تِلكَ الأشعَّةُ وتِلكَ الحَلاوةَ وتِلكَ الرقةُ التي فتحَتْ عَيْنَيَّ لتُرَيَني أفراحَ الحُبِّ وأحزَانَه؟ لا أدري! ولكنّني أعلَمُ أنّني شَعرتُ بعَاطفةٍ لم أشعُرْ بهَا قَبلَ تِلكَ السَاعة، عَاطفةٍ جَديدةٍ تمايلَتْ حَولَ قَلبي بِهُدوءٍ يُشَابِهُ رَفرفةَ الرُوحِ على وَجه الغَمْرِ[1] قَبل أن تَبتدئَ الدُهور. ومِن تِلكَ العَاطفةِ قَد تَولّدَتْ سَعَادتي وتَعاسَتي مِثلَما ظَهرَتْ وتناسَخَتِ الكَائناتُ بِإرادةِ ذَلك الرُوح.

هَكَذا انقضَتْ تِلكَ السَاعةُ التي جَمعَتني بِسَلمى لأوّلِ مَرّةٍ، وهَكَذا شَاءَتِ السَماءُ وأعتَقَتْني[2] عَلى حِينِ غَفلةٍ من عُبُوديّةِ الحَيرةِ والحَداثةِ لتُسيِّرَني حُرًّا في مَوكبِ المَحبّةِ، فالمحبّةُ هي الحُرّيّةُ الوَحيدةُ في هَذَا العَالَمِ لأنّها تَرفَعُ النفسَ إلى مَقامٍ سَامٍ لا تبلُغُه شَرَائِعُ البَشَرِ وتَقَاليدُهم، ولا تسودُهُ نَواميسُ الطَبيعةِ وأحكَامُها.

---

(١) الغَمر: ج غِمار وغُمُور: الماء الكثير.

(٢) أعتقتني: حرَّرتني.

ولمّا وقفتُ للانصِرافِ اقتربَ مِني فَارس كرامَه وقَال بصَوتٍ تُعانِقُه رَنّةُ الإخلاص: الآنَ وقَد عرَفتَ الطَريقَ إلى هَذَا المنزِلِ يجبُ أن تَأتِيَ إليهِ شَاعِرًا بالثقةِ التِي تقودُكَ إلى بَيتِ أبيك وأنْ تحسَبَني وسَلمى كَوالِدٍ وأُختٍ لكَ. أليسَ كَذلك يَا سَلمى؟

فحنَتْ سَلمى رَأسَها إيجابًا ثُمّ نظرَتْ إليَّ نِظرةَ غَريبٍ ضَائعٍ وَجَدَ رَفيقًا يَعرِفُه.

إنَّ تِلكَ الكَلماتِ التِي قَالَها لي فَارس كَرامَه هِيَ النَغمةُ الأُولى التِي أوقفَتْني بِجَانبِ ابنتِه أمَامَ عَرشِ المَحبّة. هي استِهلالُ[1] الأُغنيةِ السَماويّةِ التِي انتهَتْ بالنَدبِ[2] والرِثَاء. هي القوّةُ التِي شَجّعَتْ رُوحَيْنا فاقترَبْنا مِنَ النُورِ والنَارِ. هي الإنَاءُ الذي شَرِبْنا فِيهِ الكَوثرَ والعَلقَمَ[3].

وخَرجتُ فَشيَّعَني[4] الشيخُ إلى أطرَافِ الحَديقةِ فودَّعْتُهما وقَلبي يَخفُقُ في دَاخلي مِثلَما تَرتَعشُ[5] شَفَتا العَطشَانِ بمُلامسَةِ حَافةِ الكَأس.

---

(١) استهلال: مطلع، بداية.
(٢) الندب: تَعداد محاسن الميت بِلَحْنٍ جنائزي مؤثّر.
(٣) الكوثر: الشراب العذب؛ العلقم: المرّ.
(٤) شيَّعني: رافقني لدى مغادرتي.
(٥) ترتعش: ترتجف.

الشعلة البيضاء

وانقضَى[1] نِيسَان (أبريل) وأنَا أزورُ منزلَ فَارس كَرامَه وَأَلتَقِي سَلمى وأجلسُ قَبالتَها في تِلكَ الحَديقةِ مُتأمِّلاً محاسِنَها، مُعجَبًا بِمَواهِبها، مُصغِيًا[2] لسَكينةِ كآبتِها، شَاعِرًا بوُجودِ أيدٍ خَفيَّةٍ تَجتَذِبُني إليهَا. فَكلّ زِيارةٍ كَانَت تُبيِّنُ لي مَعنىً جَديدًا مِن مَعَاني جَمالِها، وسِرًّا عَلَويًّا مِن أسرَارِ رُوحِها حتَّى أصبَحَتْ أمَامَ عَينيَّ كِتابًا أقرأُ سُطُورَه، وأَستَظهِرُ آيَاتِه وأترَنَّمُ بنَغمتِه ولا أستَطيعُ الوُصُولَ إلى نِهايتِه.

إنَّ المَرأةَ التِي تمنَحُها الآلهةُ جَمالَ النَفسِ مَشفُوعًا بِجَمالِ الجَسدِ هِي حَقيقةٌ ظَاهرةٌ غَامِضَةٌ نَفهَمُها بِالمَحَبَّةِ ونَلمُسُها بِالطُهرِ، وعِندَما نُحاوِلُ وَصْفَهَا بِالكَلامِ تَختفِي عن بَصائِرنا وَرَاءَ ضَبابِ الحَيرةِ والالتِباس.

وسَلمى كَرامَه كانَت جَميلةَ النَفسِ والجَسدِ، فكيفَ أَصِفُها لمَنْ لا يَعرِفُها؟ هَل يَستطِيعُ الجَالسُ في ظِلِّ أجنحَةِ المَوتِ أن يَستحضِرَ

---

(١) واو العطف لا معنى لها في بداية الفصل.

(٢) من الأصوب القول: مُصغيًا إلى سكينةِ كآبتِها.

تغريدَةَ البُلبُلِ، وهَمْسَ الوَردةِ، وتَنهِيدةَ الغَديرِ؟ أيقدِرُ الأسيرُ المُثْقَلُ بالقُيودِ أن يُلاحِقَ هُبُوبَ نَسماتِ الفَجرِ؟ ولكن، أليَس السُكوتُ أصعبَ من الكَلامِ؟ وهَل يَمنَعُني التهيُّبُ عَن إظهَارِ خَيالٍ مِن أخيلةِ سَلمى بالألَفاظِ الوَاهِيَةِ[1] إذَا كُنتُ لا أستَطيعُ أن أرسُمَ حَقيقَتها بِخطُوطٍ مِن الذَهَبِ؟ إنَّ الجَائعَ السَائرَ في الصَحراءِ لا يَأبَى أكلَ الخُبزِ اليَابِسِ إذَا كانَتِ السَماءُ لا تُمطِرُهُ المَنَّ والسَلوَى[2].

كانَت سَلمى نَحيلةَ الجِسمِ تَظهَرُ بمَلابِسِهَا البَيضَاءِ الحَريريّةِ كأشِعَّةِ قَمَرٍ دخلَتْ مِنَ النَافِذةِ. وكَانَت حركاتُها بَطيئةً مُتوازِنةً أشبهَ شَيءٍ بمَقَاطيع[3] الألحَانِ الأصفَهَانِيّة، وصَوتُها مُنخفِضًا حُلوًا تَقطَعُه التنهُّداتُ، فيَنسكِبُ من بَينِ شَفتَيْها القُرمُزيَّتَيْنِ مثلَما تَتساقَطُ قَطراتُ النَدَى عَن تِيجَانِ الزُهورِ بمُرورِ تَمَوُّجَاتِ الهَواءِ. ووجهُها - ومَنْ يَا تُرى يَستطيعُ أن يَصفَ وَجهَ سَلمى كَرامه؟ بِأيَّةِ ألفَاظٍ نَقدِرُ أن نُصوِّرَ وَجهًا حَزينًا هَادِئًا محَجُوبًا وَليسَ محَجُوبًا بِنقَابٍ مِنَ الاصفِرارِ

(١) الواهية: الضعيفة، العاجزة عن التعبير والإفهام.

(٢) المنّ والسلوى: المنُّ هو مائيَّة تنعقد على بعض الأشجار عسلاً وتجفُّ جفاف الصمغ. ومَنُّ بني إسرائيل هو الذي أنزله الله بأعجوبة بالبرية ليقتاتوا به. والسلوى هو العسلُ لأنّه يُسليكَ بحلاوته. وقد ورد ذكرهما في الكتاب المقدس.

(٣) من الأصوب القول: مقطّعات.

الشَفَّاف؟ بِأَيَّةِ لُغَةٍ نقدِرُ أن نَتكلَّمَ عَن مَلامِحَ تُعلِنُ في كلِّ دَقيقةٍ سِرًّا مِن أَسرارِ النَفسِ وتُذَكِّرُ النَاظِرينَ إليهَا بعَالَمٍ رُوحيٍّ بَعيدٍ عَن هَذَا العَالَمَ!

إنَّ الجَمالَ في وَجهِ سَلمى لم يكُن مُنطَبِقًا على المَقاييسِ التَي وضَعَها البشرُ للجَمَال، بَل كَانَ غَريبًا كَالحُلم أو كَالرُؤيا أو كفِكرٍ عُلْويٍّ لا يُقاسُ ولا يُحَدُّ ولا يُنسَخُ بِريشةِ المُصوِّر، ولا يَتَجسَّمُ برُخَامِ الحَفّار. جمالُ سَلمى لم يكُن في شَعرِها الذَهبيِّ بل في هَالَةِ الطُهرِ المُحيطةِ به. ولم يكُن في عَيَنْيها الكبيرتَيْنِ بَل في النُور المُنبعثِ منهُما. ولا في شَفَتَيْها الوردِيَّتَيْنِ بَل في الحَلاوةِ السَائِلةَ علَيهمَا. ولا في عُنُقِها العَاجِيِّ بَل في كَيفيّةِ انحنَائِهِ قَليلاً إلى الأَمَام. جَمالُ سَلمى لم يكُن في كَمالِ جَسَدِها بَل في نَبَالَةِ رُوحِها الشَبيهةِ بشُعلةٍ بَيضَاءَ مُتَّقِدَةٍ[1] سَابحَةٍ بينَ الأرضِ واللانِهَاية. جَمالُ سَلمى كَان نَوعًا مِنَ النُبوغِ الشِعريِّ الذي نُشاهِدُ أشباحَه في القَصائدِ السَامِيَةِ والرُسُوم والأنغَامِ الخَالِدَةِ. وأصحَابُ النُبُوغِ تُعسَاءُ مَهمَا تَسامَتْ أروَاحُهم تظلُّ مُكْتَنَفَةً بُغلافٍ مِنَ الدُمُوعِ.

---

(١) مُتَّقدة: مشتعلة.

وكَانت سَلمى كَثيرَةَ التَفكيرِ قَليلةَ الكَلام، ولكنَّ سُكوتَها كَان مُوسِيقيًّا يَنتقلُ بجَليسِها إلى مَسَارحِ الأحلامِ البَعيدةِ، ويَجْعَلُه أَنْ يُصغي لنبضَاتِ قَلبه، ويَرى أخيلةَ أفكَارِه وعَواطِفِه مُنتصبةً أمَام عَينيه.

أمَّا الصِفَةُ التي كانَت تُعانِقُ مَزَايا سَلمى وتُساوِرُ[1] أخلاقَها فَهي الكَآبةُ العَميقةُ الجَارِحةُ، فالكَآبةُ كانَت وِشَاحًا مَعنويًّا تَرتَدِيهِ فَتزيدُ محَاسنَ جَسدِها هَيبةً وغَرابةً، وتَظهرُ أشعَّةُ نَفسِها من خِلالِ خُيُوطِهِ كخُطوطِ شَجَرةٍ مُزهِرَةٍ من وَرَاءِ ضَبَابِ الصَبَاح. وقَد أوجَدَتِ الكَآبةُ بينَ رُوحِي ورُوحِ سَلمى صِلَةَ المُشَابَهَة، فكَانَ كِلانا يَرَى في وَجهِ الثَاني مَا يشعرُ به قلبُه، ويسمَعُ بصَوتِه صَدَى مُخبَّآتِ صَدرِه، فكأنَّ الآلهةَ قَد جعَلَتْ كلَّ واحدٍ مِنّا نِصفًا للآخرِ يَلتصِقُ بِهِ بِالطُهر فَيصيرُ إنسَانًا كَامِلًا، ويَنفَصِلُ عَنهُ فيشعُرُ بنَقْصٍ مُوجِعٍ في رُوحه.

إنَّ النفسَ الحَزينةَ المُتألّمَةَ تَجِدُ راحَةً بانِضمَامِها إلى نَفسٍ أُخرى تُماثِلُها[2] بالشُعُور، وتُشارِكُها بالإحسَاسِ مِثلَما يَستأنِسُ[3] الغَريبُ

---

(١) كان من الصواب القول: تلازم، بدلاً من «تساور» ليستقيم المعنى.
(٢) تُماثِلُها: تُشابِهُهَا.
(٣) يستأنس: يجدُ الأنسَ والسلوى.

بالغَرِيبِ في أرضٍ بَعيدةٍ عن وَطَنِهما -فالقُلوبُ التِي تُـدنِيها[1] أوجَـاعُ الكآبةِ بَعضُها من بَعضٍ لا تُفَرِّقُها بَهجَةُ الأفـرَاحِ وبهرَجَتُهـا. فَرابِطـةُ الحُزنِ أقوَى في النُفُوس مِن رَوابطِ الغِبطَةِ والسُرور. والحـبُّ الـذِي تغسِلُه العُيونُ بدُموعِها يَظلُّ طاَهِرًا وجَميلاً وخَالدًا[2].

***

(١) تُدنيها: تقرِّبُها.

(٢) الحب، الطهر، والألم؛ مثلَّثٌ كان عزيزًا على قلب الرومنسيين الذين يعتبرون أن الحبَّ إذا لم يتألّم لا يُصبح، ولا يمكنه أن يصبح، مُبدِعًا خلاَّقًا.

العَاصِفة

وبعدَ أيَّام دَعَاني فَارس كَرامَه إلى تَناوُل العَشاءِ في مَنزِلِه، فذهَبْتُ ونَفسِي جَائِعةٌ إلى ذَلكَ الخُبزِ العُلْويِّ الذِي وَضَعَتْهُ السَماءُ بَينَ يَدَي سَلمى، ذَلكَ الخُبزُ الرُوحيُّ الذِي نَلتَهِمُهُ بِأفوَاهِ أفئِدَتِنا فَنَزدَادُ جُوعًا، ذَلكَ الخُبزُ السِحريُّ الذِي ذَاقَ طَعمَهُ قَيسُ العَربيُّ[1] ودَانتي الطِليَانيُّ[2] وسَافُو اليُونانيَّة[3] فالتَهبَتْ أحشَاؤهُم وذَابَتْ قُلوبُهم، ذَلكَ الخُبزُ الذِي عجَنَتْهُ الآلهةُ بحَلاوةِ القُبَلِ ومَرارةِ الدُمُوع، وأعَدَّتْهُ مَأكلاً للنُفوسِ الحَسّاسَةِ المُستيقظةِ لتُفرِحَها بطَعمِه وتُعذِّبَها بتَأثيره.

---

(١) قيس العربي: هناك قيسان: قيس بن ذَريح وقيس بن الملوَّح. وكلاهما من شعراء العصر الأموي. الأول اشتهر بحب لُبنى بنت الحُباب الكعبية، وشعرُه فيها عالي الطبقة في التشبيب ووصف الشوق والحنين. تُوفي سنة ٦٨٧ ميلادية. والثاني هو المعروف بمجنون ليلى نسبة إلى ليلى العامرية التي كان يعشقها ويُكثر من ذكرها في شعره. رفض أهلها أن يزوِّجوها به فهامَ على وجهه يُنشِدُ الأشعار إلى أن مات. توفي حوالي ٦٨٨ ميلادية. ويظهر من سياق الكلام أن الثاني (مجنون ليلى) هو المقصود.

(٢) دانتي الطلياني: هو دانتي ألياري (Dante Alighieri) (١٢٦٥-١٣٢١م) أعظم شعراء إيطاليا ومن رجالات الأدب العالمي. خلد اسمه بملحمته الشعرية «الكوميديا الإلهية».

(٣) سافو (Sapho): شاعرة يونانية عاشت في أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس قبل المسيح. قيل إن لها سبعة دواوين في شعر الحب، كان لها انتشار واسع في جاهلية اليونان (Antiquité) ولم يبقَ من هذه الدواوين السبعة إلا مقطعات معدودة (Enc. Larousse).

ولما بَلغتُ المنزلَ وَجدتُ سَلمى جَالسةً على مَقعدٍ خَشبيٍّ في زَاويةٍ من الحَديقةِ وقد أسنَدَتْ رأسَها إلى عمدِ شَجرة فبانَتْ بثوبِها الأبيضِ كوَاحدةٍ من عَرائِسِ الخَيالِ تَخفِرُ[1] ذلك المكَانَ، فَدنوتُ منهَا صَامتًا وجَلستُ بقُربِها جُلوسَ مجوسيٍّ مُتهيِّبٍ أمَامَ النَارِ المُقدَّسةِ، ولَمَّا حَاولتُ الكَلامَ وجدتُ لِساني مُنعقِدًا وشَفتيَّ جَامِدَتَيْنِ فاستأنَسْتُ بالسُكُوتِ؛ لأنَّ الشُعُورَ العَميقَ غَيرَ المُتناهي يَفْقِدُ شَيئًا مِنْ خَاصَّتِهِ المَعنويَّةِ عِندَما يَتَجسَّمُ بالألفَاظِ المَحدُودَةِ، ولكنَّني شَعرتُ بأنَّ سَلمى كَانَت تَسمَعُ في السَكينةِ مُناجَاةَ قَلبي المُتَواصِلَةَ وتُشاهِدُ في عَينَيَّ أشبَاحَ نَفسي المُرْتَعِشَة.

وبَعدَ هُنيهةٍ خَرج فَارس كَرامَه إلى الحَديقةِ ومشَى نَحوَنا مُرَحِّبًا بي كعَادتِهِ بَاسِطًا يَدَه إليَّ كأنَّه يُريدُ أن يبَارِكَ بها ذَلكَ السِرَّ الخَفِيَّ الذي يَربِط رُوحي برُوح ابنتِه، ثُمّ قَال مُبْتسِمًا: هَلُمَّا يا وَلَدَيَّ إلى العَشَاءِ فالطعَامُ يَنتظِرُنَا. فَقُمنا وتَبعنَاهُ وسَلمى تَنظرُ إليَّ مِن ورَاءِ أجفَانٍ مَكحُولةٍ بالرقَّةِ والانعطَافِ، كأنَّ لفظة «يَا وَلَدَيَّ» قَد أيقظَتْ فِي داخِلِها شُعورًا جَديدًا عَذبًا يَكتَنِفُ مَحبَّتَها لي مِثلَما تَحتَضِنُ الأُمُّ طِفلَها.

---

(١) تخفِرُ: تحرسُ.

جَلَسْنا إلى المَائدةِ نَأكُل ونَشرَبُ ونَتحدَّثُ. جَلسنا في تِلكَ الغُرفَةِ نتلذَّذُ بِألوانِ الطَعامِ الشَهيَّةِ وأنواعِ الخُمورِ المُعتَّقَةِ، وأروَاحُنا تسبَحُ على غَيرِ مَعرفةٍ مِنّا في عَالَمٍ بَعيدٍ عن هَذَا العَالَمِ وتَحلُمُ بمآتي المُستقبلِ[1] وتتأهَّبُ للوِقوفِ أمَامَ مَخَاوفِهِ وأهَوالِهِ. ثلاثةُ أشخَاصٍ تختَلفُ أفكارُهم باختلافِ مَقَاصِدِهم مِنَ الحَياةِ، وَتتَّفقُ سَرائرُهم[2] باتفَاقِ قُلوبِهم بالمَودَّةِ والمَحَبَّة. ثَلاثةٌ مِنَ الضُعَفَاءِ الأبريَاءِ يَشعُرون كَثيرًا ويَعرِفُونَ قَليلاً، وهَذِهِ هي المَأسَاةُ المُستتبّةُ على مَسرحِ النفس. شيخٌ جليلٌ شَريفٌ يُحبُّ ابنتَه ولا يَحفِلُ بغَيرِ سَعادتِها؛ وصَبيَّةٌ في العِشرينَ من عُمرِهَا تَرَى المُستقبلَ قريبًا بَعيدًا وتُحدِّقُ إليه لتَرى مَا يُخبِّئُ لها من الغِبطَةِ والشَقَاء؛ وفتىً كثيرُ الأحلامِ والهَواجسِ لم يَذُقْ بعدُ خمرَ الحَياةِ ولا خَلَّهَا يُحرِّكُ جَناحَيْه ليطيرَ سَابِحًا في فَضاءِ المَحبّةِ والمَعرفةِ ولكنَّه لا يَستطيعُ النُهوضَ لضُعفِه. ثلاثةٌ جَالسونَ حَولَ مَائدةٍ أنيقةٍ في مَنزلٍ مُنفردٍ عن المَدينةِ تُخيِّمُ عليه سَكينةُ الدُجى، وتحدّقُ إليه عيونُ

---

(١) مآتي المستقبل: عطاياه.

(٢) سرائرهم: نواياهم. مفردها: سريرة.

السَماءِ[1]. ثَلاثةٌ يأكُلُون وَيَشرَبونَ وفي أعماقِ صُحونِهم وكُؤوسِهم قَد أخفَى القَدَرُ المَرارَةَ والأشوَاك.

ولم ننتهِ من العَشاءِ حتَّى دخلَتْ عَلينا إحدَى الخَادِماتِ وخَاطبَتْ فَارس كَرامَه قائلةً: في البَابِ رجلٌ يَطلبُ مُقابلتَك يَا سَيّدي.

فسَألها: مَن هُو هَذَا الرجُل؟ فأجَابَتْ: أظنُّه خَادمَ المطرانِ يَا سَيّدي. فسكَتَ دَقيقةً وحَدَّقَ إلى عَينَي ابنته نَظيرِ نَبيٍّ ينظرُ إلى وَجْهِ السَماءِ ليَرَى مَا تُخَبِّئُهُ من الأسرَارِ، ثُمَّ التفَتَ نَحوَ الخَادمةِ وقَال: دَعيهِ يَدْخُلْ.

فعَادتِ الخَادمةُ. وبعدَ هُنيهَةٍ ظَهَرَ رجلٌ بَأثوابٍ مُزركَشَةٍ وشَاربٍ مَعقُوفِ الطَرفَيْنِ فَسلَّم مُنحَنِيًا، وخَاطبَ فَارس كَرامَه قائلاً: قَد بَعَثَني سِيادةُ المطرانِ بمَركَبتهِ الخُصُوصِيَّةِ لأطلُبَ إليكَ أن تَتكرَّمَ بالذَهابِ إليه، فهو يُريدُ أن يباحِثَكَ بأمورٍ ذَاتِ أهمِّية.

فانتصبَ الشيخُ وقد تغيَّرَتْ مَلامِحُهُ وانحَجَبَتْ بشاشَةُ وَجهِهِ

(١) المعرفة والحقيقة، العلو والتسامي، أمور لا تدرَك في خضم الصخب وضجيج المجتمع، بل بالسكينة (الهدوء الداخلي) والوحدة والانفراد. وغالبًا ما نشهد هذا الربط عند جبران بين إدراك المعرفة وطلب الوحدة.

ورَاءَ نِقابٍ من التأمُّل والتفكير، ثُمَّ اقترب مِنِّي وقَالَ بصَوتٍ تُسَاوِرُه[1] الرِقَّةُ والحَلاوَةُ: أرجُو أن أعُودَ وألقَاكَ هَهُنا، فسَلمى سَتجدُ بك مُؤنِسًا يُبعِدُ بأحَاديثِهِ وَحشَةَ اللَيل، ويُزيلُ بأنغَامِ نفسِه تأثيرَ الوَحدةِ والانفِرَاد. ثُمَّ التفَتَ نحوَ ابنتهِ وزَادَ مُبتَسِمًا: أليسَ كذلك يَا سَلمى؟

فحنَتِ الصَبيَّةُ رأسَها وقَد تَورَّدَتْ وَجنَتَاها قَليلاً، وبصَوتٍ يُضارِعُ[2] نغمةَ النَاي رِقَّةً قَالت: سَوفَ أُجهِدُ النفسَ لكي أجعلَ ضَيفَنا مَسرُورًا يَا والدي.

وخرجَ الشيخُ مَصحوبًا بِخادِمِ المُطرانِ وظلَّتْ سَلمى واقفةً تَنظُرُ من النَافذةِ نَحوَ الطَريقِ حتى اختفَتِ المَركبةُ عن بَصرِها ورَاءَ سَتائرِ الظَلام، واضمَحَلَّ[3] ارتِجَاجُ الدَواليبِ بِتبَاعُدِ المَسافَةِ، وتَشرَّبَ السُكونُ حَرتَقَةَ[4] سَنابِكِ الخَيل، ثُمَّ جَلسَتْ قُبالتي على مَقعدٍ مُوَشَّى[5] بِنسيجٍ من الحَريرِ الأخضَرِ فَبانَتْ بأثوابِها النَاصِعةِ كزنبقَةٍ

(١) يريد: بصوتٍ تداخِلُه الرقة والحلاوة، أو: بصوت ملأته الرقّة والحلاوة.
(٢) يضارع: يضاهي، يزيد على...
(٣) اضمحلّ: زال، اختفى، فنَى.
(٤) لفظة عامية تعني: الضجة الكبيرة.
(٥) موشّى: مزيّن.

لوَتْ قَامَتَها نَسماتُ الصبَاحِ على بِسَاطٍ منَ الأعشَاب.

كذا شاءَتِ السماءُ فخلَوْتُ بسَلمى ليلاً في مَنزلٍ مُنفردٍ تحفُرُه الأشجارُ، وتغمُرُه السَكينةُ، وتَسيرُ في جَوَانِبِه أخيلَةُ الحُبِّ والطُهرِ والجَمال(١).

ومرَّتْ دقائقُ وكلانا صَامتٌ حَائرٌ مفتكِّرٌ يترقَّبُ الآخرَ ليبدَأَ بالكَلام. ولَكن هل هُو الكَلامُ الذي يُحدِثُ التَفاهُمَ بينَ الأرواحِ المُتَحَابَّة؟ هَل هِي الأصوَاتُ والمَقاطعُ الخَارجةُ من الشِفَاه والألسِنَةِ التي تُقرِّبُ بينَ القُلوبِ والعُقُول؟ أفَلا يُوجَدُ شيءٌ أسمَى ممّا تَلِدُه الأفوَاهُ وأطهرُ ممَّا تهتزُّ به أوتَارُ الحَنَاجِرِ؟ أليسَتْ هي السَكينةُ التي تحمِلُ شُعاعَ النفسِ إلى النَفسِ، وتنقلُ هَمْسَ القَلبِ إلى القَلب؟ أليسَتْ هي السَكينةُ التي تَفصِلُنا عن ذوَاتِنا فنسبَحَ في فضاءِ الرُوح غيرِ المَحدودِ، مُقتربينَ مِنَ الملإِ الأَعلى، شَاعرين بأنَّ أجسَادَنا لا تُفوقُ السُجونَ الضيِّقة، وهَذَا العَالَمَ لا يَمتازُ عَن المَنفَى البَعيد؟

---

(١) السكينة، الوحدة والانفراد؛ الحب، الطهر والجمال؛ ثلاثيّات لا تنفصم أجزاء كلٍّ منهما، بل تتوثق فيما بينها لتعبِّر عن الفكر الجبراني. وكأن الأمور السامية في الحياة لا تُدرك إلا في عودة الإنسان إلى نفسه في جوٍّ من السكينة والهدوء والانفراد بعيدًا عن عَبَثِ الناس وصَخَبِ حركتهم اليومية.

ونظَرَتْ سَلمى إليَّ وقد باحَتْ أجفانُها بسَرائرِ نفسِها ثُمَّ قالت بهُدُوءٍ سِحريّ: تَعالَ نخرُجْ إلى الحَديقةِ ونَجلِسْ بينَ الأشجَارِ لنَرَى القَمرَ طَالِعًا مِن ورَاءِ الجَبل.

فوقفتُ مُطيعًا وقُلتُ مُمانِعًا: أليسَ الأفضلُ أن نبقى هَهُنا يَا سَلمى حتَّى يطلعَ القمرُ ويُنيرَ الحَديقة؟ أمَّا الآن فالظلامُ يحجُبُ[1] الأشجَارَ والأزهارَ فَلا نستطيعُ أن نَرَى شَيئًا. فأجَابَت: إذَا حَجَبَ الظَلامُ الأشجارَ والرياحِين عَن العينِ فالظَلامُ لا يَحجُبُ الحُبَّ عَنِ النَفس.

قالت هَذهِ الكَلماتِ بلَهجَةٍ غَريبةٍ، ثمَّ حَوَّلَتْ عَينَيْها ونَظرَتْ نحوَ النَافذةِ، فبقيتُ أنَا صَامِتًا مُفكِّرًا بِكَلماتِها مُصوِّرًا لكلِّ مقطعٍ مَعنًى، رَاسِمًا لكلِّ مَعنًى حقيقةً، ثمَّ عَادَتْ فحدَّقَتْ إليَّ كأنَّها نَدِمَتْ علىِ مَا قَالت، فحَاوَلَتِ استِرجَاعَ كَلماتِها من أُذُنيَّ بسِحرِ أجفانِها. ولكنَّ سِحرِ تِلكَ الأجفَانِ لم يَستَرجِعْ تِلكَ الألفَاظَ إلاَّ ليُعيدَها إلى أعمَاقِ صَدري أكثرَ وُضُوحًا وأشدَّ تَأثيرًا، وَليبقيها هُناكَ مُلتصقةً بقَلبي مُتموِّجَةً مع عَواطِفي إلى آخرِ الحَياة.

كلُّ شيءٍ عَظيمٍ وجَميلٍ في هَذَا العَالَمِ يتولَّدُ من فِكرٍ وَاحد أو مِن

(١) يحجبُ الأشجار: يخفيها، يحولُ دون رؤيتها.

حَاسَّةٍ واحِدةٍ في داخلِ الإنسَان. كلُّ مَا نَراهُ اليَومَ من أعمالِ الأجيَالِ الغَابرةِ كان قبلَ ظُهورِهِ فِكرًا خَفيًّا في عَاقِلَةِ[1] رجلٍ، أو عَاطِفَةً لطيفةً في صَدرِ امرَأة... الثورات الهَائِلةُ التِي أجرَتِ الدِماءَ كالسَواقي وجَعَلَتِ الحُرية تُعبَدُ كَالآلهةِ، كانَت فِكرًا خَياليًّا مُرتَعِشًا بَين تَلافِيفِ دِماغِ رَجُلٍ فَردٍ عَائشٍ بَينَ أُلوفٍ مِنَ الرجَال. والحروبُ المُوجِعَةُ التِي ثلَّتِ[2] العروشَ وخرَّبَتِ المَمالكَ كَانت خَاطِرًا يتمَايَلُ في رَأسِ رَجُلٍ وَاحِد. والتعَاليمُ السَاميةُ التي غَيَّرَتْ مسيرَ الحيَاةِ البَشريّةِ كانَت مَيلاً شِعريًّا في نَفسِ رَجلٍ واحِدٍ مُنفَصِل بِنُبُوغِهِ عَن مُحيطِه. فكرٌ واحِدٌ أَقَامَ الأهرَامَ[3]، وعَاطفةٌ واحدةٌ خرَّبَتْ طروادَةَ[4]، وخاطرٌ واحدٌ

---

(١) العاقلة: القوة المدركة.

(٢) ثلّت: أسقطت، هدمت، خرّبت.

(٣) الأهرام: هي قبور فراعنة مصر، تميّزت بضخامتها وروعة تصميمها ودقّة هندستها، وتنمُّ عن رُقيٍّ فكريٍّ علميٍّ لم يزل دارسو الحضارة ومؤرخوها يعملون حتى اليوم، في كشف غوامضه وأسراره. وأشهرها وأكبرها أهرام خوفو. وقد بنى هذه الأهرامات فراعنة السلالة الرابعة.

(٤) حروب طروادة: حروب أسطورية شبّت في القرن الثالث عشر قبل المسيح طرفاها اليونان والطرواديون، وبرز خلالها أبطال شهيرون أمثال: أخيل وهكطور وفطرقل؛ وملوك عظام أمثال: منلاوس، وأغاممنون، وفريام، ونساء بارزات أمثال: هيلانة وأندروماك... وقد خلّد الشاعر اليوناني هوميروس هذه الحروب في ملحمتَيْه الرائعتين: الإلياذة والأوديسه.

أو جَدَ مجدَ الإسلام، وكَلمةٌ واحِدةٌ أحرَقَتْ مَكتبة الإسكَندَرية[1].

فكرٌ واحِـدٌ يجيئُـكَ في سَـكينةِ الليـلَ يـسيرُ بِـك إلى المَجـدِ أو إلى الجُنُون. نَظرةٌ واحِدةٌ من أطرَافِ أجفَانِ امرَأةٍ تجعَلُكَ أسعَدَ النَاس أو أتعَسَهم. كَلمةٌ واحِدةٌ تخرُجُ من بَين شَفَتَيْ رَجُـلٍ تُـصيِّرُكَ غَنيًّـا بعـدَ الفَقر أو فَقِيرًا بَعدَ الغِنى... كلمةٌ واحدةٌ لفظَتْها سَلمى كَرامَه في تِلكَ الليلةِ الهَادئةِ أوقفَتْنِي بينَ مَـاضِيَّ ومُـستقبَلي وقـوفَ سَـفينةٍ بـينَ لُجَّـةِ البِحارِ وطبَقَاتِ الفَضَاءِ. كلمةٌ واحِدةٌ مَعنويّةٌ قَد أيقَظَتْني مِن سُـباتِ الحَداثَةِ والخُلوِّ[2] وسَارَتْ بأيَّامِي على طَريقٍ جَديدةٍ إلى مَسَارحِ الحُـبِّ حَيثُ الحياةُ والموتُ.

خرَجْنا إلى الحَديقةِ وسِرْنا بَينَ الأشجَارِ شَاعِرَيْنِ بأصابعِ النَـسيمِ

---

(١) الإسكندرية: أسس الإسكندر مدينة الإسكندرية سنة ٣٣١ ق.م. مشهورة بمنارتها التي يزيد ارتفاعها على ٤٠٠ قدم. وهي أحد أبرز المراكز الحضارية الهلبنستية اشتهرت بمتحفها ومكتبتها.
• أنشأ البطالسة مكتبتها، وقيل بلغ ما كان فيها من الكتب حوالي ٤٩٠٠٠٠ كتاب. ولما وصل يوليوس قيصر إلى الإسكندرية سنة ٤٨ ق.م. شبّت معركة بحرية واشتعل حريق هائل أتلف دار صناعة السفن وما جاورها من المباني، وفيها مكتبة الإسكندرية العظمى. وذهب المؤرخ بلوتارك إلى أن مقدار ما التهمته النيران بلغ ٤٠٠٠٠٠ مجلد، وبذلك فقدت الحضارة تراثًا لا يمكن أن يُعوَّض (الموسوعة العربية الميسَّرة).

(٢) الخلوّ: بمعنى الوَحدة؛ سُبات: نوم.

الخَفيَّةِ تُلامِسُ وَجهَيْنا، وقَاماتُ الأزهَارِ والأعشَابِ اللَدِنـةِ[1] تتمايـلُ بينَ أقدامِنا، حتَّى إذَا مَا بَلَغْنا شَجرةَ اليَاسَمين، جَلسنَا صَامِتينَ على ذَلك المَقعدِ الخَشبيِّ نَسمعُ تنفسَ الطَبيعةِ النَائمةِ، ونَكشِفُ بِحلاوَةِ التنهُّدِ خَفَايا صَدرَيْنا أمَامَ عُيونِ السَماءِ النَاظرةِ إلينَا مِن ورَاءِ ازرقاقِ السَماء[2].

وطلعَ القمرُ إذ ذَاك مِن وراءِ صنّينَ وغمرَ بنُورهِ تِلكَ الرَوابيَ والشَواطئَ، فظَهرَتِ القُرى على أكتَافِ الأوديَّةِ كَأنَّها قَدِ انبثَقَتْ من اللاشيءِ، وبانَ لُبنانُ جَميعُه مِن تحتِ تِلكَ الأشعَّةِ الفِضيَّةِ كأنّه فتًى متَّكِئٌ على سَاعِدِه تحتَ نِقابٍ لطيفٍ يُخفِي أعضاءَه ولا يُخفِيها.

لُبنانُ عندَ شُعراءِ الغَربِ مكَانٌ خَياليٌّ قدِ اضمحلَّتْ حقيقتُه بذهَابِ دَاودَ وسُليمانَ والأنبيَاءِ مِثلَما انحجَبَتْ جَنَّةُ عَدْنٍ بسُقُوطِ آدمَ وحَوّاءَ. هو لفظةٌ شِعريّةٌ لا اسمُ جَبَلٍ - لفظةٌ تَرمزُ عن عَاطفةٍ في النَفس وتَستَحضِرُ إلى الفِكر رُسُومَ غَابَاتٍ من الأَرز يَفُوحُ منهَا العِطرُ والبَخُورُ، وأَبراجُ النُحَاسِ والرُخَامِ تَتَعالى بالمَجدِ والعَظَمَةِ، وأسرَابٌ

(١) اللدنة: الناعمة، الطرّية.

(٢) يجعل جبران السماء دائمًا شاهدًا على ما يفعل، ليبعد حُبّه كلَّ شبهة دنس أو خبث.

من الغِزلانِ تَتَهَادَى بينَ الطُلولِ والأودِيةِ. وأنَا قد رَأيتُ لُبنانَ في تِلكَ الليلةِ مثلَ فِكرٍ شِعريٍّ خَيالِيٍّ مُنتصِبٍ كالحُلمِ بينَ اليَقظةِ واليَقظة. كَذَا تَتغيَّرُ الأشياءُ أمَامَ أَعيُنِنا بِتغيُّرِ عَوَاطِفِنا، وهكَذا نَتَوَهَّمُ الأشيَاءَ مُتَّشِحَةً[1] بالسِحرِ والجَمالِ عندَما لا يكُونُ السِحرُ والجَمالُ إلاَّ في نفوسِنا.

والتفتَتْ إليَّ سَلمى وقَد غَمَرَ نُورُ القَمرِ وَجهَها وعُنُقَها ومِعصَمَيْهَا فبانَتْ كتِمثَالٍ مِنَ العَاجِ نحتَتْهُ أصَابع مُتعبِّدٍ لعَشتَروتَ[2] ربّةِ الحُسنِ والمَحَبّة: لماذَا لا تَتكلّمُ؟ لماذَا لا تُحدّثُني عَن مَاضي حيَاتِك؟

فنظرتُ إلى عَينَيْها المُنيرتَين، ومثلَ أخرسَ فَاجأَ النُطقُ شَفتَيه أجبتُها قائِلا: ألم تَسمَعِيني مُتكلِّمًا مُذْ جِئتُ إلى هَذا المكَانِ؟ أوَلم تَسْمَعِي كلَّ مَا قلتُه مُذ خَرَجْنا إلى هذه الحَديقة؟ إنَّ نفسَكِ التِي تسمَعُ هَمْسَ الأزهَارِ وأغَاني السَكينةِ تستطيعُ أن تسمَعَ صُراخَ رُوحي وضَجيجَ قَلبي.

---

(١) مُتَّشِحَة: مُغَلَّفَة.

(٢) عشتروت: إلهة من إلاهات اليونان، وهي في الميتولوجيا اليونانية إلهة الجمال والحبّ.

فحجَبَتْ وجهَها بيدَيها ثُمَّ قَالت بصَوتٍ مُتقطِّع: قَد سَمِعتُك... نَعَمْ، سَمعتُك. سَمعتُ صَوتًا صَارِخًا خَارِجًا مِن أحشَاءِ الليلِ وضَجَّةً هَائلةً مُنبثقةً مِن قَلبِ النهَارِ.

فقلتُ بسُرعةٍ وقَد نَسيتُ مَاضِي حَياتي ونَسيتُ كِياني ونَسيتُ كلَّ شيءٍ ولم أعُدْ أعرِفُ سِوى سَلمى ولا أشعُرُ بغيرِ وُجودِها: وأنا قَد سَمعتُكِ يَا سَلمى - سَمِعتُ نَغمةً عَظيمةً مُحيِيةً جَارِحةً تتموَّجُ لها دقائقُ الفضَاءِ وتَهتزُّ بارتِعَاشِها أُسسُ الأرض.

فأغمضَتْ سَلمى أجفَانَها وظَهَرَ على شَفَتَيْها القُرمُزيَّتين خيالُ ابتسامةٍ مُحزنةٍ ثم هَمَسَتْ قَائلة: قَد عَرفتُ الآنَ أنهُ يُوجَدُ شَيءٍ أعلَى مِنَ السَماءِ، وأعمَقُ مِنَ البَحرِ، وأقوَى مِنَ الحيَاةِ والَموتِ والزَمن. وقَد عرفتُ الآنَ ما لم أكُن أعرِفُهُ بالأمسِ ولا أحلُمُ به.

منذُ تِلكَ الدقيقةِ صَارَتْ سَلمَى كَرامه أعزَّ مِنَ الصَديقِ وأقربَ من الأختِ وأحبَّ مِنَ الحَبيبةِ. صَارَت فِكرًا سَاميًا يتبعُ عَاقِلَتي، وعَاطفةً رقيقةً تَكتنفُ قَلبي، وحُلمًا جَميلاً يُجاوِرُ نَفسِي.

مَا أجهلَ النَاسَ الذين يتوهَّمُونَ أن المَحبَّةَ تَتولَّدُ بالمُعاشَرةِ الطَويلَةِ والمُرَافقَةِ المُستَمِرَّة! إنَّ المَحبَّةَ الحَقيقيَّةَ هي ابنةُ التفاهُم الرُوحِيِّ وإن لم

يَتمَّ هَذَا التَفاهمُ بلَحظةٍ واحدةٍ لا يَتمَّ بعامٍ ولا بجيلٍ كامِلٍ.

ورفعَتْ سَلمى رأسَها ونَظَرَتْ نَحوَ الأُفُقِ البَعيدِ حيثُ تلتَقي خُطُوط صنِّينَ بأذيَالِ الفَضَاءِ، ثُمَّ قَالت: لقد كُنتَ لي بالأمسِ مثلَ أخٍ أَقتربُ منه مُطمَئِنَّةً وأَجلِسُ بجَانِبِه في ظِلال وَالدي، أمَّا الآنَ فقد شَعرتُ بوُجودِ شَيءٍ أقوَى وأعذبَ من العَلاقةِ الأخَويَّة. قَد شعرتُ بعاطفةٍ غَريبةٍ مُجَرَّدَةٍ عَن كُلِّ عَلاقة، عَاطفةٍ قَويةٍ مُخيفةٍ لذيذةٍ تَملأ قَلبي حُزنًا وفَرحًا.

فأجبتُها: أليسَتْ هَذِهِ العَاطفةُ التي نخافُها ونَرتجِفُ لمُرُورِها في صُدُورِنا جُزءًا من النَامُوسِ الكُلّي الذي يُسَيِّرُ القمرَ حَولَ الأرضِ، والأرضَ حولَ الشَمسِ، والشَمسَ ومَا يُحيطُ بها حَولَ الله؟

فوَضَعَتْ يدَها على رَأسِي، وغَرَسَتْ أصَابِعَها بشَعرِي وقَد تَهَلَّلَ وَجهُها وترقرَقَتِ الدُمُوعُ في عَينَيها مِثلَما تَلمَعُ قطراتُ النَدى على أطرَافِ أورَاقِ النَرجسِ، ثمَّ قَالت: مَنْ مِنَ البَشرِ يُصَدِّقُ حكايَتَنا؟ مَنْ مِنهم يُصدِّقُ أنّنا في السَاعةِ التِي تَجيءُ بينَ غُروبِ الشَمسِ وطُلُوعِ القَمرِ قَد قَطَعْنا العَقبَاتِ واجتَزْنا المَعَابِرَ[1] الكَائنةَ بينَ الشَكِّ

(١) المعابر: يريد الكاتب الحواجز.

واليَقِينِ؟ مَنْ منهم يَعتقدُ أن نِيسانَ (أبريل) الذي جَمَعَنا لأوّلِ مَرَّة هُو الشَهرُ الذِي أوقَفَنَا في قُدسِ أقدَاسِ الحيَاة؟

قالت هَذِهِ الكَلماتِ ويدُها مَا بَرحَتْ على رَأسي المُنحَني، ولو تُخيِّرتُ في تِلكَ الدَقيقةِ لما فَضَّلتُ تِيجَانَ المُلوكِ وأكاليلَ الغَارِ على تِلكَ اليَدِ الحَريريّةِ المُتلاعِبَةِ بشَعري. ثمَّ أجبتُها قَائِلاً: إنَّ البشَرَ لا يُصَدِّقُونَ حِكايَتَنا لأنّهُم لا يَعلَمُون بأنَّ المَحبَّةَ هي الزَهرةُ الوَحيدةُ التِي تَنبتُ بغيرِ مُعاونَةِ الفُصُول، ولكنْ، هل هُو نِيسانُ (أبريل) الذي جَمَعَنَا لأوّلِ مَرَّة؟ وهَل هي هَذِهِ السَاعةُ التِي أوقفَتْنا في قُدسِ أقداسِ الحَياة؟ أما جَمَعَتْ رُوحَينا قَبضةُ الله قبلَ أن تُصيِّرَنا الوِلادةُ أَسيرَي الأيَّامِ واللّيَالي[1]؟ إن حيَاةَ الإنسَانِ يَا سَلمى لا تَبتدئُ في الرَحِمِ كما أنَّها لا تَنتهي أمَامَ القَبرِ، وهَذا الفَضاءُ الواسعُ المَملوءُ بأشعَّةِ القَمرِ والكَواكبِ لا يَخلُو مِنَ الأروَاحِ المُتعَانِقَةِ بالمَحبَّةِ والنُفُوسِ المُتضَامِنَةِ بالتَفَاهُم.

ورفعَتْ سَلمى يَدَها بلُطْفٍ عَن رَأسِي تَارِكَةً بينَ مَغَارسِ الشَعر

---

(١) يقول جبران في «الأرواح المتمرّدة» على لسان «وردة الهاني»: إن المحبة هي قوة تبتدع قلوبنا، وقلوبنا لا تقدر أن تبتدعها؛ وهي تهبط على أرواحنا بإيعاز من الله لا بطلبٍ من البشر.

تموُّجاتٍ كَهربائيّةً يتلاعَبُ بها نَسيمُ اللَيلِ فيزيدُها نُمُوًّا وحِرَاكًا، فأخذتُ تِلكَ اليدَ بِرَاحتَيَّ نَظيرَ مُتعبِّدٍ يتبرَّكُ بلَثْمِ[1] المَذبَحِ، ووضَعْتُها على شَفتَيَّ المُلتَهِبَتَيْنِ وقبّلتُها قُبلةً طَويلةً عَميقةً خَرسَاءَ، تُذِيبُ بحَرارتِها كُلَّ مَا في القَلبِ البَشريِّ مِنَ الإحسَاسِ وتُنبِّهُ بعُذوبَتِها كُلَّ مَا في النَفسِ الإلهيَّةِ من الطُهر.

ومرَّت علينَا سَاعةٌ كُلُّ دَقيقةٍ منهَا شَغَفٍ[2] وَمحبّة، تُساوِرُنا سَكينةُ الليلِ وتَغمُرُنَا أشعَّةُ القَمرِ وتُحيطُ بنَا الأَشجَارُ والرَياحِين. حتَّى إذَا مَا بَلَغْنا تِلكَ الحَالةَ التِي يَنْسى فيهَا الإنسَانُ كُلَّ شيءٍ سِوى حَقيقةِ الحُبِّ، سَمِعنا وَقْعَ حَوافِرَ وهَديرَ مَركبةٍ تقتَربُ مِنّا مُسرِعة، فانتبَهْنا مِن تِلكَ الغَيبوبةِ اللذِيذةِ وهبَطَتْ بنا اليَقظةُ مِن عَالَمِ الأحلامِ إلى هَذَا العَالَمِ الوَاقفِ بمَسِيرِهِ بينَ الحَيرةِ والشَقَاءِ، فعرَفْنا أنْ الوَالدَ الشَيخَ قَد عَادَ مِن دَارِ المُطرانِ فسِرْنا بينَ الأشجَارِ ننتظرُ وصُولَه، وبلَغتِ المَركبةُ مدخَلَ الحَديقةِ فترجَّلَ فَارس كَرامَه وسَارَ نَحوَنا مُنحنيَ الرأسِ بَطيءَ الحَركَةِ، ونَظيرَ مُتعَبٍ رَازحٍ تحتَ حِمْلٍ ثَقيلٍ تَقدَّمَ نَحوَ سَلمى ووَضَعَ كِلتَا يَدَيه على كَتفَيْهاَ، وحَدّقَ إلى وَجْهِها طَويلاً كَأنّهُ

(١) بلَثْم: بتقبيل.
(٢) شغف: وَلَه، حُبٌّ شديد.

يخافُ أن تَغيبَ صُورتُها عن عَينَيهِ الضَئيلتَيْنِ، ثُمَّ انسكبَتْ دُموعُه على وَجْنَتَيْهِ المُتَجَعِّدَتَيْنِ وارتجفَتْ شَفتَاهُ بابتِسَامةٍ مُحزِنةٍ وقَالَ بصَوتٍ مَخنُوقٍ: عمّا قَريبٍ يَا سَلمى، عَمَّا قَريبٍ تخرُجينَ مِن بينِ ذرَاعَيْ والدِكِ إلى ذرَاعَيْ رجُلٍ آخرَ. عمّا قَريبٍ تَسيرُ بِك سُنّة الله[1] مِن هَذَا المَنزِلِ المُنفردِ إلى سَاحَةِ العَالَمِ الواسِعةِ فتصبحُ هذه الحَديقةُ مُشتاقةً إلى وَطءِ قَدمَيْكِ، ويصيرُ والدُك غَريبًا عَنكِ. لقد لَفَظَ القَدرُ كلمتَه يَا سَلمى، فَلْتُبَارِكْكِ السَماءُ وَتَحْرُسْكِ!

سَمِعَتْ سَلمى هَذِهِ الكَلماتِ فتغيَّرتْ مَلامِحُها وَجَمَدَتْ عَيناها كأنّها رَأَتْ شَبحَ المَوتِ مُنتَصِبًا أمَامَها، ثُمَّ شَهَقَتْ وتملمَلَتْ مُتوجِّعَةً كعُصفورٍ رَماهُ الصَيّادُ فَهَبَطَ على الحَضِيضِ[2] مُرتَجِفًا بآلامه، وبِصوتٍ تَقطعُهُ الغصَّاتُ العَميقةُ صَرخَتْ قَائِلةً: مَاذَا تَقُولُ؟ مَاذَا تَعني؟ إلى أينَ تُريدُ أن تبعثَ بي؟

ثمَّ شخصَتْ به كأنّها تُريدُ أن تُزيلَ بنظَراتِها الغُلافَ عَن مُخبَّآتِ صَدرِه. وبعدَ دَقيقةٍ مُثْقَلةٍ بعَوامِلِ ذلك السُكونِ الشَبيهِ بصُراخِ القُبورِ

---

(١) سُنَّةُ الله: شريعته.

(٢) الحضيض: القرار من الأرض عند أسفل الجبل.

قَالت مُتأوِّهَةً: قَد فَهمتُ الآنَ... قَد عرفتُ كلَّ شَيءٍ... إنَّ المطرانَ قَد فَرَغَ من حَبْكِ قُضبانِ القَفصِ[1] الذِي أعدَّهُ لهذَا الطَائرِ المكسُورِ الجَنَاحَيْنِ، فهَل هَذِهِ هي إرادتُك يَا وَالدِي؟

فلم يُجِبْها بغَيرِ التنهُّداتِ العَمِيقَةِ، ثُمَّ أدخَلَها الدارَ وأشعَّةُ الحُنُوِّ تَنْسَكِبُ مِن مَلامِحِهِ المُضطَرِبَةِ، فبَقيتُ أنَا واقِفًا بَينَ الأشجَارِ والحَيرةُ تَتَلاعبُ بعَواطِفِي مِثلَما تَتَلاعبُ العَواصِفُ بأورَاقِ الخَريفِ، ثُمَّ تَبْعتُهما إلى القَاعَة. وكَيلا لا أظهَرَ بمَظهرِ طُفَيْليٍّ[2] يَميلُ إلى استِطلاعِ[3] الخُصُوصِيَّات، أخَذْتُ يَدَ الشَيخِ مُودِّعًا ونَظرتُ إلى سَلمى نَظرةَ غَرِيقٍ تَلفَّت نَحو نَجمٍ لامِعٍ في قُبَّةِ الفَلَكِ، ثُمَّ خَرجتُ دُونَ أن يَشعُروا بِخُروجي. ولكنَّني مَا بلغتُ أطرافَ الحَديقَةِ حتَّى سَمعتُ صَوتَ الشَيخِ مُناديًا، فالتَفَتُّ وإذَا به يَتْبَعُني، فَعُدتُ إلى لقَائِهِ، ولمّا دَنَوْتُ مِنه أمسَكَ بِيدِي وقَالَ بصَوتٍ مُرتَعِشٍ[4]: سَامِحْني يَا ابني فقَد جَعلتُ خِتامَ لَيلتِكَ مُكتَنفًا بالدُموعِ، ولكنَّكَ سَوفَ تَجيءُ إليَّ دَائِمًا، أليسَ

(١) حَبَكَ قضبانَ القفص: شَدَّها وأحكمها.

(٢) طفيلي: الذي يدخل المحافل من غير أن يدعى إليها أو: من يتدخّل في أمور لا تعنيه.

(٣) استطلاع: استكشاف.

(٤) مرتعش: مرتجف.

كَذلك؟ ألاَ تَزورُني عِندَما يَصيرُ هَذَا المكَانُ خاليًا إلاَّ مِنَ الشَيخوخَةِ المُحزنَةِ؟ إنَّ الشَبابَ الغضَّ[1] لا يَستأنِسُ بالشَيخوخَةِ الذَابلةِ، كما أنَّ الصَباحَ لا يَلتقِي بالمَساءِ[2]، أمَّا أنتَ فسَوفَ تَجيءُ إليَّ لتُذكِّرَني بأيَّامِ الصِبَا التِي صَرَفْتُها بِقربِ أبيكَ وتُعيدَ على مَسمَعِي أخبَارَ الحيَاةِ التِي لم تَعُدْ تَحسَبُني من أبنائِها، أليسَ كَذلك؟ ألا تَزورُني عندَما تَذهبُ سَلمى وأُصبحُ وَحيدًا مُنفرِدًا في هَذَا المنزِلِ البَعيدِ عَن المَنازِل؟

لفظَ الكَلماتِ الأخيرةَ بصَوتٍ مُنخَفِضٍ مُتقطِّع، ولما أخذتُ يدَه وهزَزْتُها صَامِتًا أحسَسْتُ بِقطراتٍ منَ الدُموعِ السَخينَةِ قَد تَساقَطَتْ على يَدي مِن أجفَانِهِ، فارتَعَشَتْ نَفسِي في دَاخلي وشَعرتُ نَحوَه بعَاطِفَةٍ بَنَويَّةٍ عَذبَةٍ مُحزنَةٍ تتمَايَلُ بين ضُلُوعِي، وتَتَصَاعَدُ كاللُّهَاثِ إلى شَفتيَّ ثُم تعودُ كالغَصَّاتِ إلى أعمَاقِ قَلبِي. ولَمَّا رَفعتُ رأسِي ورَأى أنَّ دُموعَه قد استَدرَّتِ الدُموعَ من أجفَاني انحَنَى قَليلاً ولَمَسَ بشَفتَيْهِ المُرتجفَتَيْنِ أعلَى جَبهَتي ثُمَّ قَال مُحَوِّلاً وَجهَه نُحوَ بَابِ المَنزل: مسَاءُ الخَير... مسَاءُ الخَير يَا ابني.

---

(١) الشباب الغض: الشباب اليانع، الطريّ.

(٢) الباء زائدة: يقال التقاه؛ وليس التقى به.

إنَّ دَمعةً واحِدةً تتلمَّعُ عن وَجنَةِ شَيخٍ مُتَجَعِّدةٍ، لَهِيَ أشدُّ تأثيرًا في النفسِ مِن كُلِّ مَا تُهْرِقُه أجفَانُ الفِتيَانِ.

إنَّ دُموعَ الشَبابِ الغَزيرةِ هي مِمَّا يَفيضُ مِن جَوانِبِ القُلُوبِ المُتْرَعَة[1]، أمَّا دُموعُ الشُيُوخِ فهي فَضَلاتُ العُمرِ تنسَكِبُ من الأحدَاق، هِي بَقِيَّةُ الحيَاةِ في الأجسَادِ الوَاهِنة. الدُموع في أجفَانِ الشَبيبةِ كقَطراتِ النَدَى على أورَاقِ الوَردَةِ، أمَّا الدُمُوعُ على وَجنَةِ الشَيخُوخَةِ فأشبهُ بِأورَاقِ الخَريفِ المُصفَرَّةِ التِي تَنثُرها الريَاحُ وتُذرِيها[2] عِندَما يقتربُ شِتاءُ الحيَاةِ.

واختَفَى فَارس كَرامَه وراءَ مِصرَاعَي البَابِ[3] وخَرجتُ أنَا مِن تِلكَ الحَديقَةِ وصَوتُ سَلمى يَتموَّجُ في أُذنيَّ، وجَمالُها يَسيرُ كالخَيالِ أمَامَ عَينَيَّ، ودُموعُ والِدِها تَجِفُّ بِبُطءٍ على يَدَيَّ. خرجتُ من ذَلكَ المَكانِ خُروجَ آدمَ من الفِردوسِ، ولكنَّ حَوّاءَ هَذَا القَلبِ[4] لم تكُن بجَانبي لِتجعَلَ العَالَمَ كلَّه فردَوسًا... خَرجتُ شَاعِرًا بأن تِلكَ

---

(١) المترعة: المليئة.
(٢) تُذريها: تنثرها، تفرِّقها، تشتّتها.
(٣) مصراعي الباب: درفتي الباب، مغلاقي الباب.
(٤) حوّاء هذا القلب: يقصد بها سلمى كرامه.

اللَيلةَ التي وُلِدتُ فيها ثَانيةً هي الليلةُ التِي لَمَحْـتُ فيهَـا وَجْـهَ المـوتِ لأوَّلِ مَرَّةٍ.

كذا تُحيي الشَمسُ الحُقولَ بحَرارتِها، وبحَرارتِها تُميتُها.

***

بُحيرة النَّار

كلُّ مَا يفعلهُ الإنسَانُ سِرًّا في ظُلمَةِ اللَيل يُظْهِرُهُ الإنسَانُ عَلَنًا في نُور النَهار. الكَلمَاتُ التِي تَهمِسُها شِفاهُنا في السَكينةِ تَصيرُ على غيرِ مَعرفةٍ منّا حَديثًا عُموميًّا، والأعمَالُ التِي نُحاولُ اليومَ إخفاءَهَا في زَاويَا المَنازلِ تَتجسَّمُ غدًا وتَنتصِبُ في مُنعَطَفاتِ الشَوارع.

كَذا أعلنَتْ أشبَاحُ الدُجَى مَقَاصِدَ المُطرانِ بولُس غَالب من اجتمَاعِهِ بفَارس كَرامَه، وهَكَذا حمَلَتْ دَقائقُ الأثيرِ أقوَالَه وأحَادِيثَه إلى أحيَاءِ المَدينةِ حتَّى بلغَتْ مَسمَعِي.

مَا طلبَ المُطرانُ بولُس غَالب مُقَابَلَةَ فَارس كَرامَه في تِلكَ اللَيلةِ المُقمرةِ ليفاوضَهُ بِشؤُونِ الفُقَراءِ والمُعوَزينَ[1] أو يُخَابِرَهُ بِأمُورِ الأرَاملِ والأيتَامِ، بَل أحضَرَهُ بمَركَبَتِهِ الخُصُوصِيَّةِ الفَخمَةِ ليطلبَ مِنهُ ابنتَهُ سَلمى عَروسًا لابنِ أخِيهِ مَنصور بَك غَالب.

كَانَ فَارس كَرامَه رَجُلاً غَنيًّا ولم يَكُن لهُ وَارِثٌ سِوى ابنتِهِ

(١) المعوزين: المحتاجين.

سَلمى، وقَد اختَارَها المُطرانُ زَوجةً لابنِ أخيهِ، لا لجَمالِ وَجهِها ونَبالةِ رُوحِها بَل لأنّها غَنيّةٌ مُوسِرةٌ تَكفُلُ بأموالِهَا الطَائلةِ مُستقبلَ مَنصور بك، وتُساعِدُه بأملاكِهَا الوَاسِعَةِ على إيجادِ مَقامٍ رَفيعٍ[1] بَينَ الخَاصَّةِ والأَشرَافِ.

إن رُؤساءِ الدِينِ في الشَرقِ لا يَكتَفُونَ بمَا يَحصُلُونَ عَليهِ أنفسُهم المَجدِ والسُؤدُدِ[2] بَل يَفعَلُونَ كلَّ مَا في وُسْعِهم ليَجعَلُوا أنسَباءَهم في مُقدِّمةِ الشَعبِ ومن المُستبِدِّينَ بِهِ والمُستَدِرِّينَ[3] قُواه وأموَالَه. إن مَجدَ الأميرِ ينتقلُ بالإرثِ إلى ابنِهِ البِكرِ بعدَ مَوتِهِ، أمَّا مَجدُ الرئِيسِ الدِيني فينتقلُ بِالعَدوىَ إلى الإخوَةِ وأبنَاءِ الإخوَةِ في حَيَاتِه. وهَكذا يُصبحُ الأسقفُ المَسيحيُّ والإمامُ المُسلمُ والكاهِنُ البَرهِميُّ كأفَاعِي البَحرِ التي تَقبِضُ على الفَريسةِ بِمَقَابِضَ كَثيرةٍ وتمتصُّ دِماءَها بِأفوَاهٍ عَديدَة.

عِندَما طَلَبَ المُطرانُ بولُس يدَ سَلمى من وَالِدِها لم يُجِبْهُ ذلكَ الشَيخُ بغيرِ السُكُوتِ العَميقِ والدُموعِ السَخينةِ[4]. وأيُّ وَالدٍ لا يَشُقُّ

---

(١) مقام رفيع: مقام عالي الشأن.

(٢) السؤدد: كرمُ المنصب، السيادة.

(٣) المستدرين قواه: المستنفدينها. العاملين على بذلها كلّها.

(٤) الدموع السخينة: الدموع الحرَّي.

عليه[1] فراقُ ابنتِه حتَّى ولو كَانت ذَاهبةً إلى بَيتِ جَارِه أو إلى قَصرِ مَلكٍ؟ أيُّ رجُلٍ لا تَرتَعشُ أعمَاقُ نفسِه بالغَصَّاتِ عِندَما يَفصِلُه نَاموسُ الطَبيعةِ عن الابنةِ التي لاعَبَها طِفلةً وهذَّبَها صَبِيَّةً ورَافَقَها امرَأة؟ إنَّ كآبَةَ الوالدَيْن لزوَاجِ الابنةِ يُضارعُ فرحَهُما بِزوَاجِ الابن، لأنَّ هَذا يُكسِبُ العَائلةَ عُضوًا جَديدًا، أمَّا ذَاك فيَسلُبُها عُضوًا قَديمًا عَزيزًا.

أجَابَ الشَيخُ طَلبَ المُطران مُضطرًّا، وانحنَى أمَامَ مَشيئَتِه قَهرًا عمَّا في نفسِه مِنَ المُمانَعةِ، وكَانَ قَدِ اجتَمَعَ بابنِ أخِيهِ مَنصُور بِك وسَمِعَ النَاسَ يَتَحدَّثُونَ عنهُ فَعرَفَ خُشونَتَهُ وطَمَعَهُ وانحطاطَ أخلاقِه. ولكنْ، أيُّ مَسيحيٍّ يَقدِرُ أن يُقَاوِمَ أُسقفًا في سُوريّا ويبقَى محْسُوبًا بينَ المُؤمنين؟ أيُّ رَجُلٍ يخرُجُ عَن طَاعةِ رَئيسِ دينِهِ في الشَرق ويظلُّ كَريمًا بينَ النَاس؟ أتُعانِدُ العينُ سَهمًا ولا تُفقأ؟ أو تُناضِلُ[2] اليدُ سَيفًا ولا تُقطَع؟ وهَبْ أنَّ ذَلك الشَيخَ كان قادِرًا على مُخالفَةِ المُطران بولُس والوُقوفِ أمَامَ مَطامِعِه، فهَل تَكونُ سُعمةُ ابنتِه في مَأمنٍ مِن

---

(١) يشقّ عليه: يصعب عليه.

(٢) تناضل: بمعنى تعاند.

الظُّنُونِ والتَّآويل[1]؟ وهَل يَظلُّ اسمُها نَقيًّا من أوسَاخِ الشِفَاهِ والألسِنة؟ أوَ ليسَتْ جميعُ العنَاقيدِ العَاليةِ حَامضةً في شَرعِ بنَاتِ آوي[2]؟

هكَذا قَبضَ القَدَرُ على سَلمى كرامَه وقَادَها عَبدةً ذَليلةً في مَوْكِبِ النِسَاءِ الشَرقيَّاتِ التَاعِسَاتِ، وهكَذا سَقطَتْ تِلكَ الرُوحُ النَبيلةُ بالحَبائل[3] بينَما كانَتْ تسبَحُ لأوّلِ مَرةٍ على أجنحَةِ الحُبِّ البيضَاءِ في فَضاءٍ تَملؤه أشعَّةُ القَمرِ وتُعَطِّرُهُ رائِحةُ الأزَاهر.

إنَّ أموالَ الآباءِ تكونُ في أكثرِ المَواطنِ مَجْلَبَةً لشَقَاءِ البَنينِ. تِلكَ الخَزائنُ الواسِعَةُ التي يَملؤهَا نشَاطُ الوالدِ وحِرصُ الأُمِّ[4]، تنقلبُ حُبُوسًا ضَيقةً مُظلمةً لنفُوسِ الوَرَثةِ. ذَلكَ الإلهُ العَظيمُ الذي يَعبُدُهُ النَاسُ بشكلِ الدِينَارِ يَنقَلِبُ شَيطانًا مُخيفًا يُعذّبُ النُفوسَ ويُميتُ القُلوبَ. وسَلمى كَرامَه هي كَالكَثيراتِ من بَناتِ جِنسِها اللوَاتي يَذْهَبْنَ ضَحيّةَ ثَروةِ الوَالِدِ وأمَانيِّ العَريسِ. فَلو لم يكُن فَارس كَرامَه

---

(١) التآويل: ج تأويل: تفسير؛ الظنون: الشكوك.

(٢) إشارة إلى خرافيَّة الثعلب والعنقود.

(٣) الحبائل: الأشراك، الدسائس.

(٤) حرصُ الأُم: اهتمامها الزائد بالمال وتمسُّكها الشديد به.

رجُلاً غَنيًّا لكانَت سَلمى اليَومَ حَيّةً تَفرحُ مِثلَنا بنُورِ الشَمس.

مَرَّ أسبُوعٌ وحُبُّ سَلمى يُجالِسُني في المَساءِ مُنشِدًا على مَسمَعي أغَاني السَعادَةِ ويُنبِّهُني عِندَ الفَجرِ ليُرِيَني مَعَاني الحيَاةِ وأسرَارِ الكِيان. حُبٌّ عُلْويٌّ لا يَعرِفُ الحَسَدَ لأنَّه غَنيٌّ، ولا يُوجِعُ الجَسَدَ لأنَّه في دَاخل الرُوح. مَيلٌ قويٌ يَغمُرُ النفسَ بالقَنَاعَةِ. مجَاعَةٌ عَميقةٌ تَملأ القَلبَ بالاكتِفَاء. عَاطفةٌ تُوَلِّدُ الشَوقَ ولكنَّها لا تُثيره فتونٌ[1] جعَلَني أرَى الأَرضَ نَعيمًا والعُمرَ حُلمًا جَميلًا. فكُنت أسيرُ صَباحًا في الحُقولِ، وأرَى في يَقظَةِ الطَبيعةِ رَمزَ الخُلُود، وأجلِس على شَاطئِ البَحرِ وأسمَعُ من أمواجِهِ أغَانِيَ الأبديَّةِ، وَأمشِي في شَوارعِ المدينةِ وأجدُ في طَلعاتِ العَابرينَ وحَركاتِ المُشتغِلينَ محَاسِنَ الحيَاةِ وبَهجَةَ العُمران.

تِلكَ أيَّامٌ مضَتْ كالأشبَاحِ واضمَحَلَّتْ كالضَبَابِ وَلم يَبقَ لي مِنهَا سِوى الذِكرَى الأليمةِ، فالعينُ التي كُنتُ أرَى بها جَمالَ الرَبيعِ ويَقظَةَ الحُقُولِ لم تَعُدْ تُحَدِّقُ إلى غَيرِ غَضَبِ العَواصِفِ ويَأسِ الشِتَاءِ. والأُذُنُ التي كنتُ أسمَعُ بها أُغنيةَ الأمواجِ لم تَعُدْ تُصغِي لغيرِ أنّةِ

(١) فتون: إعجاب.

الأعماقِ وعَويلِ الهَاوية، والنفسُ التي كانَت تَقِفُ مُتهيّبةً أمَامَ نَشاطِ البَشر ومَجدِ العُمرانِ لم تَعُدْ تشعرُ بغيرِ شَقاءِ الفَقر وتَعاسَةِ السَاقِطينَ. فَمَا أحلىَ أيّامَ الحُبِّ! ومَا أعذَبَ أحلامَها! ومَا أمرَّ ليَاليَ الحُزنِ ومَا أكثرَ مَخاوِفَها!

وفي نهايةِ الأُسبُوعِ وقَد سَكرَتْ نَفسي بخَمرَةِ عَواطِفي سِرْتُ مسَاءً إلى مَنزلِ سَلمى كَرامَه، ذَلك الهَيكلِ الذي أقَامَه الجَمالَ وقدَّسَهُ الحُبُّ لتَسجُدَ فيه النفسُ مُصَلِّيَةً ويركَعَ القَلبُ خَاشِعًا[1]، ولمَّا بلَغْتُهُ ودخلتُ إلى تِلكَ الحَديقةِ الهَادئةِ أحسستُ بوُجودِ قوّةٍ تَستَهويني وتَستَميلُني وتُبعِدُني عن هَذا العَالَم وتُدنيني ببطءٍ إلى عَالَمٍ سِحريٍّ خَالٍ من العِراكِ والجِهَاد. ومثلَ مُتصوّفٍ جذَبَتْهُ السَماءُ إلى مَسارحِ الرُؤيَا وجَدْتُني سَائرًا بينَ تِلكَ الأشجَارِ المُحتَبِكَة[2] والزُهور المُتَعانِقة، حتَّى إذَا ما اقتربتُ مِن بَابِ الدارِ التفتُّ وإذَا بسَلمى جَالسةٌ على ذَلك المقعدِ بظلالِ شَجرةِ اليَاسمينِ حيثُ جلَسْنا مُنذُ أُسبوعٍ في تِلكَ اللَيلةِ التي اختارَتْها الآلهةُ مِن بَينِ اللَيالي وجعَلَتْها بَدءَ سَعَادتي وشَقائي. فدنوتُ منها صَامِتًا فَلم تتحَرَّكْ ولم تتكَلَّمْ كأنّها

---

(١) بيت سلمى كرامة هيكلٌ أقامه الجمال. ما يعني أن جبران ارتفَعَ بحبِّه إلى مستوى العبادة.

(٢) المحتبكة: الملتفّة بعضُها على بعض.

عَلمَتْ بقُدُومي قَبلَ قُدُومي. ولمَّا جلستُ بجَانِبها حدَّقَتْ إلى عَينيَّ دَقيقةً وتنهَّدَتْ تَنهدةً طَويلةً عَميقةً، ثُمَّ عَادَتْ فنظرَتْ إلى الشَّفَقِ[1] البَعيدِ حيثُ تَعبَثُ أوائلُ اللَيلِ بأواخرِ النَهار. وبعدَ هُنيهةٍ مملوءَةٍ بِتلكَ السَكينةِ السِحريَّةِ التي تَضُمُّ نفوسَنا إلى مَوَاكِبِ الأروَاحِ غيرِ المَنْظورة[2]، حَوَّلَتْ سَلمى وَجهَها نَحوي وأخذَتْ يَدِي بيدٍ مُرتعشةٍ بَارِدة، وبصَوتٍ يُشابِهُ تأوُّهَ جَائِعٍ لا يَقوَى على الكَلامِ قَالت:

انظُرْ إلى وجَهي يا صَديقي، انظُرْ إلى وَجهي جَيِّدًا وتَأمَّلْه طَويلاً واقرَأ فِيه كُلَّ ما تُريدُ أن تفهَمَهُ مِني بالكَلام... انظُرْ إلى وَجهي يَا حَبيبي... انظُرْ جَيِّدًا يَا أخِي.

فنظرتُ إلى وَجهِها، نَظرتُ طَويلاً، فرأيتُ تِلكَ الأجفَانَ التي كانت مُنذُ أيَّامٍ قَليلةٍ تَبتسمُ كالشِفاهِ وتَتحرَّكُ كأجنِحَةِ الشُحرُورِ، قد غَارَتْ وجَمَدَتْ واكتَحَلَتْ بخيَالاتِ التَوَجُّعِ والألَم. رأيتُ تِلكَ البَشَرَةَ[3] التي كَانت بِالأمسِ ثَنايَا الزَنبقةِ[4] البيضَاءِ الفَرِحَةِ بقُبُلاتِ

---

(١) الشفق: موضع غروب الشمس.

(٢) عالَم الحبِّ الجبراني هو عالَم «الأرواح غير المنظورة» حيث اللغة صمتٌ، والتعانق فعلُ عِبادة.

(٣) البَشَرة: ظاهر الجلد.

(٤) الزنبقة، الياسمين... يَرِدُ ذكرهما كثيرًا في الكلام عن الحب. وفي اختيارهما دلالة على الطهر الذي يحرص جبران على إضفائه على هذا الحب.

الشَمس، قدِ اصفَرَّتْ وذَبُلَتْ وتَبَرْقَعَتْ بِنِقَابِ القُنُوط[1]. رأيتُ الشفَتَيْن اللتين كانتَا كَزهرةِ أقاحٍ تَسيلُ عليها الحَلاوةُ قد يَبِسَتَا وصَارَتا كورَدَتَيْنِ مُرتجِفَتَيْن أبقَاهُما الخَريفُ على طَرَفِ الغُصن. رَأيتُ العُنُقَ الذي كَانَ مَرفُوعًا كعَمُودِ العَاج قدِ انحنَى إلى الأَمَامِ كأنَّه لم يَعُدْ قَادِرًا على حَمْلِ مَا يَجُولُ في تَلافيفِ الرَأسِ.

رأيتُ هذه الانقلاباتِ الْمُوجِعَةَ في مَلامِحِ سَلمى، رأيتُها جَميعَها ولكنَّها لم تَكُن في نَظري إلاَّ كسحَابةٍ رَقيقةٍ تُوشِّحُ القَمرَ فتزيدُ منظرَهُ حُسنًا وهَيبةً. إنَّ المَلامِحَ التِي تُبيحَ أسرَارَ الذَاتِ المَعنويَّةِ تُكسِبُ الوجهَ جَمالاً ومَلاحةً مهمَا كانَت تِلكَ الأسرارُ مُوجِعَةً وأليمَةً[2]. أمَّا الوُجُوهُ التي لا تَتكَلَّمُ بصَمتِها عن غَوامِضِ النفسِ[3] وخَفَاياها فَلا تكُونُ جَميلةً مهما كانَتْ مُتناسقةَ الخُطوطِ مُتناسبَةَ الأعضَاء. إنَّ الكؤوسَ لا تَستميلُ شفاهَنا حتَّى يَشِفَّ بلورُها عَن لونِ الخَمر. فسَلمى كَرامَه كانَت في عَشيَّةِ ذَلكَ النهارِ كَأسًا طَافِحَةً من خَمرةٍ

(١) اصفرَّتْ وذبُلت: زال جمالها؛ تبرقعت بنقاب القنوط: لبست حجاب اليأس. والمعنى زال جمالها وراء حجاب اليأس.

(٢) الوجوهُ مرايا تعكس خفايا النفس. هكذا جبران يريد أن يكون الإنسان: في وجهه ملامح تحكي عن خفايا نفسه.

(٣) غوامض النفس: خفاياها.

عُلْوِيَّةٍ تمتزجُ بدَقائِقِها مَرارةُ العَيشِ بحَلاوةِ النَفس. كانَت تمثِّلُ علَى غَيرِ مَعرفةٍ مِنها حيَاةَ المرأةِ الشَرقيَّةِ التِي لا تُغَادِرُ منزِلَ والِدِهَا المَحبوبِ إلاَّ لتضَعَ عنقَها تحتَ نيرِ زَوجِها الخَشِنِ[1]... ولا تتركُ ذرَاعَي أُمِّها الرَؤوفِ إلاَّ لتعيشَ في عُبوديَّةِ والدةِ زَوجِها القَاسِية[2].

وبقيتُ محُدِّقًا إلى وَجه سَلمى مُصغيًا لأنفَاسِها المُتقطِّعَةِ صَامِتًا مُفكِّرًا شَاعِرًا مُتألِّمًا مَعها ولها، حتَّى أحسَسْتُ أنَّ الزمنَ قَد وَقفَ عَن مَسيرِه، والوُجودَ قَدِ انحجَبَ[3] واضمَحَلّ، ولم أعُدْ أرىَ سِوى عَينَين كَبيرتَين محُدِّقَتْين بأعمَاقي، ولا أشعرُ بغيرِ يَدٍ بَاردةٍ مُرتَعِشَةٍ تَضُمُّ يدي. ولم أفِقْ مِن هَذه الغَيبوبةِ حتَّى سَمِعتُ سَلمى تَقُول بهُدوءٍ:

تعالَ نَتَحدَّثِ الآن يَا صَديقي. تَعالَ نُحَاوِلْ تَصويرَ المُستقبلِ قبلَ أن يحمِلَ عَلينا بمخَاوفِه وَأهوالِه. لقَد ذَهَبَ والدِي إلى منزِلِ الرَجُلِ الذي سَيكونُ رَفيقًا لي حتَّى القَبر. قد ذهبَ الرجُلَ الذي انتقَتْهُ السَماءُ سَببًا لوُجودِي ليَلتقيَ بالرجُلَ الذي انتقَتْهُ الأرضُ سَيِّدًا علَى أيَّامي

---

(١) الخشن: بمعنى الثقيل.

(٢) ينطلق جبران من الفردية إلى الكونيَّة، فيرى في الأفراد صورة عن المجتمعات والأمم. فالـ«أنا»، في الأدب الرومانسي، هيكل صغير يجسِّد العالَم الأكبر.

(٣) انحجب: غاب واختفى وراء حجاب.

الآتيَة"[1]. ففي قَلبِ هَذِهِ المدينةِ يجتَمعُ الآنَ الشيخُ الذي رافَقَ شَبيبتي بالشَابِّ الذي سَيرافِقُ ما بقيَ لي مِن السِنين، وفي هَذِهِ اللَيلةِ يَتَّفقُ الوالدُ والخَطيبُ على يَومِ القِرانِ[2] الذي سَيكونُ قَريبًا مَهما جَعَلاه بَعيدًا.

فما أغربَ هَذه السَاعةَ! وما أشدَّ تأثيرَها! في مثلِ هَذِهِ الليلةِ من الأُسبوعِ الغَابر، وفي ظِلالِ هذه الياسَمينةِ قَد عانَقَ الحُبُّ رُوحِي لأوّلِ مَرّة، بينَما كان القَدَرُ يَخُطُّ أوّلَ كلمةٍ من حِكَايةِ مُستقبَلي في دَار المُطرانِ بولس غَالب. وفي هَذه السَاعةِ وقَد جلسَ والدي وخَطيبي ليَضفِرا[3] إكليلَ زَواجي، أرَاكَ جَالِسًا بجَانبي، وأشعُرُ بنفسِكَ مُتموِّجَةً حَولي كطَائر ظَامئ[4] يحُومُ مُرفرفًا فَوقَ يُنبوعِ مَاءٍ يَخفِرُهُ[5] ثُعبانٌ جَائعٌ مُخِيفٌ، فما أعظَمَ هذه الليلَةَ! ومَا أعمَقَ أسرارَها!

فَأجبتُها وقد تخيَّلتُ القُنوطَ شَبَحًا مُظلِمًا قَابِضًا على عُنُقِ حُبِّنا

(١) تقصد أباها وزوجها العتيد.

(٢) يوم القِران: يوم الزواج.

(٣) ليضفرا: لينسجا، ليحيكا، ليصنعا.

(٤) ظامئ: عطشان؛ يحوم: يدور.

(٥) يخفره: يحرسه، يحميه.

ليُميتَه في طُفُوليَّتِهِ[1]: سَيظلُّ الطَائرُ حَائمًا مُرفرِفًا فَوقَ اليَنبوعِ حتَّى يُضنِيَهُ العَطشُ فيُرديَهُ[2] أو يقبِضَ عَليه الثُعبانُ المخيفُ فَيمزِّقَهُ ويلتَهِمَه.

فقَالت مُتأثّرةً وصوتُها يرتجفُ كالأوتَار الفِضيَّةِ: لا، لا يَا صَديقي، فَلْيبقَ هَذا الطَائرُ حَيًّا، ليبقَ هَذَا البُلبلُ مُغرِّدًا حتَّى المَساء، حتى ينتهيَ الربيعُ، حتَّى ينتهيَ العَالَم، حتَّى تنتهيَ الدُهور، لا تُخرِسْهُ لأنَّ صَوتَه يُحيِيني، ولا تُوقِفْ جَناحَيْه لأن حَفيفَهُما يُزيلُ الضَباب عن قَلبي.

فهمَستُ مُتنهِّدًا: الظَمأُ يقتُلُه يا سَلمى، والخَوفُ يُميته.

فأجابَتْ والكلامُ يَتَدَفَّقُ بسُرعةٍ مِن بينَ شَفتَيْها المْرتَعِشَتَيْنِ: إنَّ ظَمأَ الرُوحِ أعظمُ مِنِ ارتوَاءِ المَادَّة، وخَوفَ النفسِ أَحَبُّ من طُمأنِينَةِ الجَسَد... ولكن اسمَعْ يَا حَبيبي، اسمَعْني جَيّدًا، أنَا واقفةٌ الآنَ في بَابِ حَياةٍ جَديدةٍ لا أعرِفُ عنهَا شَيئًا. أنا مثلُ عَمياءَ تَتلمَّسُ بيدِهَا الجُدرانَ مخَافَةَ السُقُوطِ. أنا جَاريةٌ أنزَلني مَالُ والدِي إلى سَاحةِ

(١) المقصود: طفولته.

(٢) يُضنيه: يُنهكه، يُتعبه، يُرهقُه؛ يُرديه: يقتله.

النَخَّاسِين[1] فابتَاعَني رجلٌ مِن بَينَ الرِجَال. أنَا لا أُحِبُّ هَـذَا الرَجُـلَ لأنّني أجهلُهُ، وأنتَ تَعلـمُ أنَّ المحبّـةَ والجَهَالـةَ لا تَلتَقِيـان، ولكنَّني سَوفَ أتعلَّمُ محبَّته[2]. سَوف أطيعُه وأَخدُمُـهُ وأجعَلُـه سَـعيدًا. سَـوفَ أَهَبُهُ كلَّ مَا تَقدِرُ المَرأةُ الضَعيفةُ أن تَهَبَ الرَجلَ القويَّ. أمَّا أنـتَ فلـم تَزَلْ في رَبيعِ العُمر، أمامَك الحيَاةُ طَريقًـا وَاسـعةً مَفروشـةً بالأزهَـار والرَيـاحِينِ. سَـوف تخرُجُ إلى سَـاحةِ العَـالَمِ حَـامِلاً قَلبَـكَ مِـشعَلاً مُتَّقِدًا[3]. سَوفَ تفكِّر بحُريّةٍ وبحُريّـةٍ تَـتكلّمُ وتَفعـلُ. سَـوفَ تكتـبُ اسمَكَ على وَجهِ الحيَاةِ لأنَّكَ رجُلٌ. سَوفَ تَعـيشُ سَـيِّدًا، لأنَّ فَاقَـةَ[4] والدِكَ لا تجعَلُكَ عَبـدًا، وأموالَـه لا تنـزِلُ بِـك إلى سُـوقِ النخَّاسِـينَ حيثُ تُباعُ البنَاتُ وتُشرَى. سَوف تَقترنُ بالصَبيَّةِ التي تختَارُها نفسُك مِن بينِ الصَبايَا فتُسكِنُها صَدرَك قبل أن تُسكِنَهَا مَنزلَـكَ، وتُـشارِكُها بأفكارِكَ قَبلَ أن تُساهِمَها[5] الأيّامَ والليَالي.

---

(١) النخَّاسين: تجار الرقيق الأبيض. الذي يتاجرون بالإنسان بيعًا وشراءً.

(٢) وهل المحبَّةُ مما يُتَعَلَّم؟ لقد سبق لوردة الهاني (الأرواح المتمردة) أن حاولت محبَّة رشيد بك نعمان... وعبثًا، حاولت.

(٣) متَّقدًا: مشتعِلاً.

(٤) فاقة: حاجة، عَوَز، فقر شديد.

(٥) تساهمها: تشاركها، تقاسمها.

وسكتَتْ دَقيقةً كيما تَسترجِعَ أنفَاسَها، ثُمَّ زادَتْ بصَوتٍ تتابِعُه الغَصَّاتُ: ولَكن أههُنا تفرِّقُنا سُبُلُ الحَياةُ لتذهَبَ بكَ إلى أمجَادِ الرَجُلِ وتَسيرَ بي إلى واجِباتِ المَرأة؟ أهكَذا يَنقضِي الحُلمُ الجميلُ وتَندَثِرُ[1] الحَقيقةُ العَذبةُ؟ أهكَذا تَبتلعُ اللُجَّةُ نَغمةَ الشُحرورِ وتَنثُرُ الرياحُ أوراقَ الوَردةِ وتَسحَقُ الأقدَامُ كأسَ الخَمرِ؟ أبَاطِلاً أوقفَتْنا تِلكَ الليلةُ أمَامَ وجهِ القَمرِ، وبَاطِلاً ضَمَّنا الرُوحُ في ظِلالِ هذه اليَاسَمينةِ؟ هَل تَسرَّعْنا بالصُعُودِ نحوَ الكواكِبِ فَكلَّتْ[2] أجنحَتُنا وهَبَطَتْ بنَا إلى الهَاوية؟ هَل فاجَأْنا الحُبَّ نائِمًا فاستيقَظَ غَاضِبًا ليُعاقِبَنَا، أم هَيَّجَتْ أنفاسُنا نَسماتِ الليلِ فانقلَبَتْ رِيحًا شَديدةً لتُمزِّقَنَا وتَجرُفَنا كالغُبارِ إلى أعمَاقِ الوَادي؟ لم نخالِفْ وَصيَّةً، ولم نَذُقْ ثَمرًا، فكَيفَ نَخرُجُ من هَذِهِ الجَنَّة؟ لم نتآمَرْ ولم نَتمرَّدْ، فلمَاذا نَهبِطُ إلى الجَحِيم؟ لا، لا، وألف لا ولا. إنَّ الدَقائقَ التي جَمَعَتْنَا هي أعظمُ من الأجيَالِ، والشُعاعَ الذي أنارَ نَفسَيْنا هُو أقوَى مِنَ الظَلام، فإن فَرَّقَتْنا العَاصِفةُ على وجهِ هذا البَحرِ الغَضوبِ[3] فَالأموَاجُ تَجْمَعُنَا على ذَلكَ الشَاطِئِ الهَادئِ،

---

(١) تندثر: تنمحي، تزول.

(٢) كلَّت: أصابها الكَلل أي التعب الشديد.

(٣) الغضوب: المقصود الغاضب، الهائج.

وإن قَتَلتَنْا هذه الحياةُ فذَاكَ الموتُ يُحيينا.

إنْ قلبَ المَرأةِ لا يتَغيَّرُ معَ الزمَنِ ولا يَتحوَّلُ مع الفُصُول. قَلبُ المرأةِ يُنَازعُ طَويلاً ولكنَّهُ لا يمُوتُ. قلبُ المَرأةِ يُشابه البَرِّيَّةَ التي يَتَّخِذُها الإنسَانُ سَاحةً لحُرُوبِهِ ومذَابِحِه، فهو يَقتلعُ أشجَارَها ويَحرُقُ أعشابَها ويُلطِّخُ صُخورَها بالدِمَاءِ ويَغرِسُ تُربتَها بالعِظَام والجَماجِم، ولكنَّها تبقَى هَادِئَةً سَاكِنةً مُطمئنَّةً، ويَظلُّ فيها الربيعُ رَبيعًا والخَريفُ خَريفًا إلى نِهايةِ الدُهور... والآنَ قُضِيَ الأمرُ فماذَا نَفعلُ؟ قُلْ لي مَاذَا نفعلُ؟ وكيفَ نَفتَرِقُ؟ وأينَ؟ ومتَى نَلتقي؟ هَل نَحسَبُ الحُبَّ ضَيفًا غَريبًا أتَى به المَساءُ وأبعَدَهُ الصَباحُ؟ أنَحسَبُ هَذه العَاطفةَ النفسيّةَ حُلمًا أبانَهُ الكَرَى[1] ثُمَّ أخفَتْه اليَقظةُ؟ أنحسَبُ هَذا الأُسبوعَ سَاعةَ سُكرٍ مَا لَبِثَتْ أن قَضَتْ[2] بالصَحْوِ والانتِباه؟ ارفَعْ رأسَكَ لأرَى عَينَيكَ يا حَبيبي. افتَحْ شفَتَيْك لأسمَعَ صوتَك. تَكَلَّمْ، أخبِرْني، حَدِّثْني، هَل تَذكُر بعدَ أن تُغرِقَ العَاصِفةُ سَفينَتَيْ أيّامِنا؟ هَل تسمَعُ حفيفَ أجنحَتِي في سَكينة الليل؟ هَل تَشعُرُ بأنفاسِي مُتموِّجَةً على وَجهِكَ وعُنُقِك؟ هل تُصغِي لتنهُّداتي مُتصَاعِدَةً بالتوجُّعِ مُنخفِضَةً

(١) أبانَهُ الكرى: أظهره النوم.
(٢) قضت: انتهت، زالت.

بالغَصَّات؟ وهَل تَرى خَيالي قَادِمًا مَعَ خَيالاتِ الظَلام مُضْمَحِلاً مَعَ ضَباب الصَباح؟ قُلْ لي يَا حَبيبي، قل لي: مَاذا تكونُ لي بَعدَ أن كُنتَ نُورًا لعَيني ونَغَمَةً لأُذُني وجَناحًا لرُوحي، مَاذَا تَكُونُ؟

فأجبتُها وحَبّاتُ قَلبي تَذوبُ في عَينيّ: سَأكونُ لكِ يَا سَلمى مِثلَما تُريدينني أن أكُونَ.

فقالت: أريدُك أن تُحِبَّني. أريدُكَ أن تحِبَّني إلى نِهايةِ أيّامي. أريدُكَ أن تُحبَّني مِثلَما يُحِبُّ الشَاعرُ أفكَارَه المُحزِنة. أريدُكَ أن تَذكُرَني مِثلَما يَذكُر المُسافِرُ حَوضَ مَاءٍ هَادِئٍ رأى فِيهِ خَيالَ وَجهِهِ قَبلَ أن يشرَبَ مِن مِائِه. وأريدُكَ أن تَذكُرَني مِثلَما تذكُرُ الأُمُّ جَنينًا مَاتَ في أحشَائِها قَبل أن يرَى النُور. وأريدُك أن تفكِّرَ بي مِثلَما يُفكِّرُ الملكُ الرَؤوفُ بسَجينٍ مَاتَ قبل أن يَبلُغَهُ عَفوُه. أريدُكَ أن تكُونَ لي أخًا وصَديقًا ورَفِيقًا. وأريدُكَ أن تَزورَ والدِي في وَحدتِهِ وتُعزِّيَهُ في انفرادِهِ، لأنّني عمّا قَريبٍ سَأترُكُه وأصيرُ غريبةً عنه.

فأجبتُها: سَأفعلُ كلَّ ذَلكَ يا سَلمى. سَوفَ أجعَل رُوحي غِلافًا لرُوحِكِ، وقَلبي بَيتًا لجَمالِكِ، وصَدري قَبرًا لأحزانِكِ. سَوفَ أُحُبُّكِ يَا سَلمى محبّةَ الحُقولِ للرَبيع. سوفَ أحيَا بِكِ حيَاةَ الأزَاهرِ بحَرارةِ

الشَمس. سَوفَ أَتَرَنَّمُ باسمِكِ مِثلَما يَترَنَّمُ الوَادي بصدَى رَنينِ الأجرَاسِ المُتَمَايِلَةِ فَوقَ كنَائسِ القُرى. سوفَ أُصغِي لأحاديثِ نَفسِكِ مثلَما تُصغِي الشَوَاطِئُ لِحِكايَةِ الأموَاج... سَأذكُرُكِ يا سَلمى مِثلَما يذكُرُ الغَريبُ المستَوحِشُ وطنَه المَحبُوبَ، والفَقيرُ الجَائعُ مَائِدَةَ الطَعَام الشَهيَّة، والمَلِكُ المَخلُوعُ أيَّامَ عِزِّه ومَجده، والأَسيرُ الكئيبُ سَاعاتِ الحُرِيَّةِ والطُمَأنينة. سَوف أفكِّرُ بِكَ مِثلَما يُفكِّرُ الزَارع بُأغمَارِ السَنَابِلِ وَغلَّةِ[1] البَيَادِرِ، والرَاعي الصَالحُ بالمُروجِ الخَضرَاءِ والمَناهِلِ العَذبة[2].

كنتُ أتكلَّمُ وسَلمى تَنظُرُ إلى أعمَاقِ الليلِ وتَتأوَّهُ بَينَ الآونةِ والأُخرى، ونبضَاتُ قلبِها تَتَسَارَعُ وتَتَمايَلُ كأنّها أمَواجُ بَحرٍ بينَ صُعُودٍ وهُبُوط. ثمَّ قَالت: غَدًا تَصيرُ الحَقيقةُ خَيَالاً واليَقظَةُ حُلمًا، فهَل يَكتَفي المُشتاقُ بعناقِ الخَيالِ، ويَرتوي الظمآنُ من جَداولِ الأحلامِ؟

فأجبتُها قَائِلاً: غَدًا يَسيرُ بكِ القَدرُ إلى أحضَانِ العَائلةِ المَملوءَةِ

(١) الغَلَّة: نتاج الأرض ونحوها. وغَلَّة البيادر: ما يُجمع على البيدر بعد الحصاد.
(٢) المناهل: جمع مَنهَل: المورد، موضع الشرب على الطريق.

بالرَاحَةِ والهُدُوء، ويَسيرُ بي إلى سَاحَةِ العَالَمِ حَيثُ الجِهادُ والقِتَالُ. أنتِ إلى مَنزلِ رجُلٍ يَسعَدُ بجَمالِكِ وطُهرِ نَفسِكِ، وأنَا إلى مَكامِنِ أيّامٍ تُعذِّبُني بأحزَانِها وتُخيفُني بأشبَاحها. أنتِ إلى الحيَاةِ وأنَا إلى النَزْع[1]. أنتِ إلى الأُنسِ والأُلفَةِ وأنا إلى الوَحشَةِ والانفِرادِ.

ولكنّني سَأرفعُ في وادي ظِلِّ المَوتِ[2] تِمثَالاً للحُبِّ وأعبدُه. سَأتَّخِذُ الحُبَّ سَميرًا، وأَسمَعُه مُنشِدًا، وأشرَبُه خَمرًا، وألبِسُهُ ثَوبًا. عِندَ الفَجرِ سَينبِّهُني الحُبُّ من رُقَادي ويَسيرُ أمَامي إلى البَرّيةِ البَعيدةِ. وعِندَ الظَهيرةِ سيَقُودُني إلى ظِلِّ الأشجَارِ فَأربِضُ[3] مع العَصَافيرِ المُحْتَمِيَةِ من حَرارة الشَمس. وفي المَساءِ سَيوقِفُني أمَامَ المَغربِ[4] ويُسمِعُني نَغمةَ وَداعِ الطَبيعةِ للنُور ويُريني أشبَاحَ السَكينةِ سَابحةً في الفَضَاء. وفي الليل سيُعانِقُني فأنامُ حَالمًا بالعَوالِمِ العُلْوِيَّةِ حَيثُ تَقطُنُ أرواحُ العُشّاقِ والشُعَراء.

---

(١) النَزْع: الاحتضار، الإشراف على الموت.

(٢) وادي ظل الموت: من التعابير والصور الجبرانية المبتكرة، والتي لا تُفهم إلا بالعودة إلى ذات جبران ونفسيته وتفكيره.

(٣) أربِضُ: أبركُ، أجلس دون حراك.

(٤) المقصود: الغروب.

وفي الرَبيعِ سَأمشِي والحُبّ جَنبًا لجَنبٍ، مُترنّمَينِ بينَ التُلُولِ والمُنْحَدَرات، مُتبَّعَيْنِ آثارَ أقدَامِ الحيَاةِ المُخطَّطَةَ بالبَنفسجِ والأُقحوَانِ، شَارِبَيْنِ بَقايَا الأمطَارِ بِكُؤوسِ النَرجِس والزَنبق. وفي الصَيفِ سَأتَّكِئُ والحبّ سَانِدَيْنِ رأسَيْنا إلى أغمَارِ القَشّ، مُفترشَينِ الأعشَابَ مُلتَحِفَيْنِ السَماءَ سَاهِرَيْنِ مع القَمَرِ والنُجُوم. وفي الخَريفِ سَأذهبُ والحُبّ إلى الكُرومِ، فنجلسُ بقربِ المَعَاصرِ[1] نَاظِرَيْن إلى الأشجَارِ وهي تَخلَعُ أثوَابَهَا المُذَهَّبَةَ، مُتأمّلَيْنِ بأسرَابِ الطُيورِ الرَاحِلَةِ إلى السَاحِل. وفي الشِتَاء سأجلِسُ والحُبّ بقربِ المَوقِدِ تاليَيْنِ حكَاياتِ الأجيَال، مُردّدَيْنِ أخبَارَ الأممِ والشُعُوب. وفي أيّامِ الشَبيبة سَيكُون لِيَ الحُبُّ مُهذّبًا، وفي الكُهُولةِ عَضُدًا[2]، وفي الشَيخُوخةِ مُؤنِسًا. سيظلُّ الحبُّ مَعي يَا سَلمى إلى نِهايةِ العُمر، إلى أن يجيءَ المَوتُ، إلى أن تَجمَعَني بكِ قَبضةُ الله.

كانتِ الألفَاظُ تتَصاعَدُ مِن أعمَاقِ نَفسي كَأنّهَا شُعلاتٌ مِن نَارٍ تَنمُو وتَتَطاير، ثمَّ تَتبدَّدُ وتَضمَحِلُّ في زَوايَا تِلكَ الحَديقةِ، وكانَت سَلمى مُصغِيةً والدُموعُ تَنهمرُ مِن عَينَيها كأنَّ أجفَانَها شِفاهٌ تُجيبُني

(١) المعاصر: ج مَعصرة: المكان الذي يُعصَر فيه العنب ويحوَّل إلى دبسٍ أو خمر.
(٢) عَضُدًا: مُساعِدًا.

بِالدُموعِ على الكَلام.

إنَّ الذين لم يَهَبْهُمُ الحُبُّ أجنحَةً لا يَستطيعونَ أن يَطِيروا إلى مَا وراءِ الغُيُومِ ليَرَوْا ذَلكَ العَالَمِ السِحريَّ الذي طافَتْ فيه رُوحي ورُوحُ سَلمى في تِلكَ السَاعةِ المُحزنةِ بأفراحِها، المُفرحَةِ بأوجَاعِها. إن الذينَ لم يَتَّخِذْهُمُ الحُبُّ أتباعًا لا يَسمَعُون الحُبَّ مُتكلّمًا. فهذه الحِكَايةُ لم تُكتَبْ لهم؛ فَهُم وإنْ فَهِمُوا مَعاني هَذه الصَفَحَاتِ الضَئيلةِ لا يُمكِنُهم أن يرَوْا مَا يَسيلُ بينَ سُطُورِهَا مِن الأشبَاحِ والأخيلةِ التي لا تلبسُ الحِبْرَ ثَوبًا ولا تَتَّخِذُ الوَرَقَ مَسكنًا. لكنْ، أيُّ بشريٍّ لم يَرشُفْ[1] من خَمرةِ الحُبِّ في إحدَى كاسَاته؟ أيّةُ نَفسٍ لم تَقِفْ مُتهيّبةً في ذَلكَ الهَيكلِ المُنيرِ المُرصُوفِ[2] بِحَبَّاتِ القُلُوبِ المَسقُوفِ بالأسَرارِ والأحلامِ والعَواطفِ؟ أيَّ زهرةٍ لم يَسكُبِ الصَباحُ قطرةً مِنَ النَدَى بينَ أوراقِها؟ وأيَّ سَاقِيةٍ تَضلُّ طَريقَها ولا تذهَبُ إلى البَحر؟

ورفعَتْ سَلمى إذ ذَاكَ رأسَها نَحوَ السَماءِ المُزَيَّنَةِ بالكَواكبِ ومَدَّت يَدَيْها إلى الأَمام، وكَبُرَتْ عيناها، وَارتجَفَتْ شَفتَاها، وظَهَر

---

(١) يرشُف: يمصُّ بشفتَيْه. لم يرشُفْ من خمر الحب: المقصود منها: لم يَذُقْ طعم الحبِّ.
(٢) الهيكل المرصوف بحبّات القلوب: الذي أرضُه حباتُ القلوب وقد ضُمَّ بعضُها إلى بعض.

على وَجهِها المُصْفَرِّ كلُّ مَا في نَفسِ المرأةِ المَظلومَةِ مِنَ الشَكوى والقُنُوطِ والألَم. ثُمَّ صرخَتْ قَائِلة:

ماذَا فَعَلتِ المَرأةُ يَا ربُّ فاستحقَّتْ غَضَبَك؟ ماذَا أتَتْ مِن الذُنُوبِ ليَتبعَهَا سُخطُك[1] إلى آخرِ الدُهُور؟ هَل اقترفَتْ جُرمًا[2] لا نِهايةَ لفَظَاعَتِهِ ليكُونَ عِقَابُكَ لها بغَيرِ نِهاية؟ أنتَ قَويٌّ يَا ربُّ وهيَ ضَعيفةٌ، فلماذَا تُبيدُها[3] بالأوجَاع؟ أنتَ عَظيمٌ وهي تَدُبُّ حَولَ عرشِكَ، فَلماذَا تَسحَقُها بقدَميْك؟ أنتَ عَاصفةٌ شَديدةٌ وهي كالغُبارِ أمَامَ وَجهِكَ، فلماذَا تُذرِيها[4] على الثُلُوج؟ أنتَ جبَّارٌ وهي بَائِسَةٌ، فلمَاذا تُحارِبُها؟ أنت بصيرٌ عَليمٌ وهي تَائهةٌ عمياءُ، فلمَاذا تُهلِكُها؟ أنتَ تُوجِدُها بالمَحبَةِ، فكيفَ بالمَحبّة تُفنيها؟

بيمينِكَ ترفَعُها إليكَ وبشمالِكَ تَدفَعُها إلى الهَاويةِ وهي جَاهِلَةٌ لا تَدري أنّى ترفَعُها؟ وكيفَ تَدفَعُها؟ في فمِها تَنفُخُ نسمةَ الحيَاةِ، وفي قلبِها تَزرَعُ بذورَ المَوت. على سُبُل السَعادةِ تُسَيِّرُها راجِلةً ثُمَّ تَبعَثُ

---

(١) سُخطك: غضبك.
(٢) اقترفت جُرمًا: ارتكبته.
(٣) تُبيدها: تُفنيها.
(٤) تذريها: تفرّقها.

الشَقاءَ فَارِسًا ليَصطَادَها. في حَنجرَتِها تَبُثُّ نَغمَةَ الفَرَحِ ثُمّ تُغلِقُ شَفتَيْها بالحُزنِ وتربِطُ لسانَها بِالكآبَة. بأصَابِعكَ الخَفيّةِ تُمَنطِقُ باللذّةِ أوجَاعَها وبأصَابِعِكَ الظَاهِرَةِ تَرسُمُ هَالاتِ الأوجَاعِ حَول مَلذّاتِها. في مَضجَعِها تُخفِي الرَاحةَ والسَلامةَ، وبجانِبِ مَضجَعِها تُقيمُ المخَاوفَ والمَتاعِبَ. بإرادَتِك تُحيي مُيولَها ومِن مَيولها تَتولّدُ عُيوبُها وذَلاتُها. بِمشيئتِكَ تُريها محَاسِنَ مَخلوقَاتِكَ، وبمَشيئَتِكَ تَنقلِبُ محَبّتُها للحُسنِ مجَاعَةً مُهلِكَةً، بشَريعتِكَ تُزوِّجُ رُوحَها مِن جَسَدٍ جَميلٍ وبقَضَائِكَ تجعَلُ جسَدَها بَعلاً للضُعفِ والهَوَان.

أَنتَ تَسقِيها الحَياةَ بكَأسِ المَوتِ، والمَوتَ بكَأسِ الحَياة. أنتَ تُطهِّرُها بدُموعِها، وبدُموعِها تُذيبُها. أنتَ تملأُ جَوفَها من خُبزِ الرَجُل ثُمَّ تملأُ حِفنةَ الرَجُلِ من حَبّاتِ صَدرِها.

أنتَ أنتَ يا ربُّ قَد فَتحتَ عَينيَّ بالمحبّةِ، وبالمحبَّةِ أعميتَني. أنت قبَّلتَني بشفَتيْكَ، وبيدِك القَويّةِ صَفَعْتَني. أنتَ زَرعتَ في قَلبي وردةً بيضَاءَ، وحَولَ هَذه الوردةِ أَنبَتَّ الأشواكَ والحَسَكَ. أنتَ أوثقتَ حَاضِري بروحِ فتًى أُحِبُّهُ وبجَسدِ رَجُلٍ لا أعرِفُهُ. قيَّدتَ أيّامي، فسَاعِدْني لأكونَ قويّةً في هَذا الصِراع المَوت[1]... لِتكُنْ مشيئتُكَ يا

(١) الحب والطهر: هاجسان ملازمان لجبران قلّما نجد الواحد في أدبه دون الآخر، إما تصريحًا وإما تلميحًا، بالتعبير المجازي الرمزي أو بالتعبير الحقيقي الصريح.

ربُّ. ليكُنِ اسمُكَ مُبارَكًا إلى النهاية.

وسَكتَتْ سَلمى وظلَّتْ مَلامحُها تتكلَّمُ، ثُمَّ حَنَتْ رَأسَها وأَرْخَتْ ذِراعَيْها وانخفَضَ هَيكَلُها كأنَّ القُوَى الحَيويّةَ قَد تركَتْها فبانَتْ لنَاظري كغُصنٍ قَصفَتْه العَاصِفةُ وألقَتْه إلى الحَضِيضِ ليَجِفَّ ويَندثِرَ تَحتَ أقدَامِ الدَهر. فأخذتُ يَدَها المثلّجَةَ بيدي المُلتَهبةِ وقبَّلتُ أصَابعَها بأجفَاني وشَفَتَّي، ولما حَاولتُ تَعزيتَها بالكَلامِ وجَدتُني أحرَى[1] مِنهَا بالتَعزيةِ والشَفَقةِ، فبَقيتُ صَامِتًا حَائرًا مُتأمّلاً شَاعِرًا بتَلاعُبِ الدَقائِق بعَواطِفي مُصغِيًا لأنَّـةِ قَلبي في دَاخِلي، خَائِفًا من نَفسِي على نفسِي.

ولم يَنبِسْ أحدُنا ببنتِ شَفَةٍ[2] في مَا بَقِيَ من تِلكَ الليلةِ، لأن اللّوعة إذا عظُمَتْ تَصيرُ خَرساءَ، فبَقِينا سَاكتَيْنِ جَامدَيْنِ كعمُودَيْ رُخَام قَبرَهُما الزِلزَالُ في التُراب. ولم يَعُدْ أَحدُنا يُريدُ أَن يسمَعَ الآخرَ مُتكلِّمًا، لأنَّ خيوطَ قلبَيْنا قَد وَهَت[3] حتَّى صَار التنهُّدُ دُونَ الكَلامِ يقطَعُها.

---

(١) أحرى: أجدرُ.

(٢) لم ينبِس ببنت شفة: لم ينطق كلمة واحدة.

(٣) وَهَتْ: ضَعُفت.

انتصفَ الليلُ ونَمَتْ رهبةُ السُكوتِ وطَلَعَ القَمرُ نَاقِصًا من وَرَاءِ صنّينَ وبانَ بينَ النُجومِ كوَجهِ مَيتٍ شَاحبٍ غَارقٍ في المَسانِدِ السَودَاء بينَ شُمُوعٍ ضَئيلةٍ تُحيطُ بنَعشِهِ، وظَهَرَ لُبنانُ كشَيخٍ لوَتْ ظَهرَه الأعوامُ، وأناخَتْ هيكَلَهُ الأحزانُ، وهجَرَ أجفانَه الرِقادُ، فبَاتَ يساهِرُ الدُجَى ويترقَّبُ الفَجرَ كملكٍ مخلُوعٍ جَالسٍ على رَمادِ عَرشِهِ بين خَرائِبِ قَصرِه.

إنَّ الجِبالَ والأشجَارَ والأنهَارَ تتبدَّلُ هَيئاتُها ومَظاهِرُها بتَقلُّبِ الحَالاتِ والأزمنَةِ مثلَما تَتغيّرُ مَلامِحُ وجهِ الإنسانِ بتَغيُّرِ أفكارِه وعَوَاطِفِه، فشجرةُ الحَورِ التي تَتَعَالَى في النهارِ كعرُوسٍ جَميلةٍ يُلاعبُ النَسيمُ أثوابَها، تظهَرُ في المَساءِ كعَمُودِ دُخانٍ يتصَاعَدُ نحوَ اللاشيء. والصَخرُ الكبيرُ الذي يَجلسُ عندَ الظَهيرةِ كجَبَّارٍ قَوِيٍّ يَهزأُ بعادِياتِ الزَمن[1] يبدُو في اللَيل كفَقِيرٍ بَائِسٍ يَفترشُ الثَرَى ويَلتَحِفُ الفَضَاء[2]. والسَاقِيةُ التي نَرَاهَا عندَ الصَباحِ متلمِّعةً كذَوْبِ اللُجَيْنِ[3]، ونسمَعُها مُترنِّمةً بأغنيةِ الخُلود، نخالُها[4] فِي المَساءِ مجرى دُموعٍ يتفجَّرُ من بينِ

---

(١) عاديات الزمن: ما بقي من آثاره.
(٢) يفترش الثرى ويلتحف الفضاء: جعل الثرى فراشًا والفضاء لحافًا.
(٣) اللُجَيْن: الفِضّة. (مصغَّرًا لا مكبَّر له).
(٤) نَخَالُها: نظنُّها، نحسَبُها.

أضلُعِ الوَادي ونسمَعُها تندُبُ وتَنُوح كالثكلى. ولُبنانُ الذي ظَهَرَ مُنذُ أُسبوعٍ بكُلِّ مظَاهِرِ الجَلالِ والرَونقِ[1] عِندَما كَانَ القمرُ بَدرًا، والنفسَ رَاضيةً، قَد بَان في تِلكَ الليلةِ كَئيبًا مَنهُوكًا مُستوحِشًا أمَامَ قَمرٍ ضَئيلٍ نَاقِصٍ هَائمٍ في عَرضِ السَماءِ، وقلبٍ خَافقٍ مُعتَلٍّ[2] دَاخِلِ الصَدر.

وقَفْنا للوَدَاعِ وقَد وَقَفَ بيننَا الحُبُّ واليَأسُ شبحَيْنِ هَائِلَيْنِ، هَذا بَاسِطٌ جَناحَيْهِ فَوقَ رأسَيْنا، وذَاكَ قَابِضٌ بأظَافره على عُنُقَيْنا. هَذَا يَبكي مُرتاعًا، وذَاكَ يضحَكُ سَاخِرًا. ولما أَخَذْتُ يَدَ سَلمى ووَضَعْتُها على شفَتيَّ مُتبرِّكًا دنَتْ مِني ولثَمَتْ مَفرقَ شَعري، ثُمَّ عَادَت فارتَمَتْ على المَقْعَدِ الخَشبيِّ وأطبقَتْ أجفَانَها وهمَسْت ببُطءٍ: أَشفِقْ يَا ربّ وشَدِّدْ جَميعَ الأجنحَةِ المُتكسِّرة.

انفصَلْتُ عن سَلمى وخَرجتُ مِن تِلكَ الحَديقةِ شَاعِرًا بنقَابٍ كَثيفٍ يُوشِّي[3] مَدَاركي الحِسِّيَّةِ مثلَما يَغمُرُ الضبابُ وجهَ البُحيرة. وسرتُ وأخيلةُ الأشجَارِ القَائمةِ على جَانبي الطَريقِ تَتحرَّكُ أمَامي كأنّها أشبَاحٌ قد انبَثَقَتْ من شُقُوقِ الأرض لتُخِيفَني، وأشعَّةُ القمرِ

(١) الرونق: الطلاوة والحسن والإشراق.
(٢) معتلّ: مريض.
(٣) يوشِّي: هنا بمعنى يغطِّي.

الضَعيفةُ ترتعشُ بينَ الغُصونِ كأنّها سِهامٌ دَقيقةٌ تَريشُها[1] أرواحُ الجَانِ السَابحةِ في الفَضاءِ نحو صَدري، السَكينةُ العَميقةُ تُخيِّمُ عليَّ كأنّها أكفٌّ سَوداءُ ثَقيلةٌ ألقَتْها الظُلمةُ على جَسَدي.

كلُّ ما في الوُجودِ، وكُلُّ معنى في الحيَاةِ، وكُلُّ سِرٍّ في النَفسِ قَد صَارَ قَبيحًا رَهيبًا هَائِلًا، فالنُورُ المَعنويُّ الذِي أرَاني جَمالَ العَالَمِ وبهجةَ الكَائناتِ قَد انقلبَ نَارًا تحرُقُ كَبدي بلَهيبِها، وتَسترُ نَفسِي بُدخَانِها. والنَغمةُ التي كانَتْ تَضُمُّ إلَيها أصوَاتَ المخلُوقَاتِ وتجعَلُها نَشيدًا عَلَويًّا قَدِ استَحَالَتْ في تِلكَ السَاعةِ إلى ضَجيجٍ أروعَ من زَمجَرَةِ الأسَدِ[2] وأعمَقَ من صُراخِ الهَاويةِ.

بلغتُ غُرفَتي وارتميتُ على فِراشي كطَائرٍ رَمَاهُ الصَيَّادُ فسَقَط بينَ السِياجِ والسَهمُ في قلبِه، وظلَّتْ عاقِلَتي[3] تراوحُ بينَ يقظةٍ مُخيفةٍ ونومٍ مُزعِجٍ، ورُوحي في دَاخِلي تُرَدِّدُ في الحَالتينِ كلمَاتِ سَلمى: أَشفِقْ يَا ربُّ وشدّدْ جَميعَ الأجنحةِ المُتكسِّرةِ.

***

---

(١) تريشها: تهيّئها لترمي بها.

(٢) المقصود: زئير الأسد.

(٣) عاقلتي: قوتي المدركة.

أمام عرش الموت

إنَّما الزيجةُ في أيّامِنا هَـذِهِ تِجارةٌ مُـضحِكَةٌ مُبكيـةٌ، يتـولّى أمورَهَـا الفِتيانُ وآبَـاءُ الـصَبايَا، الفِتيـانُ يربَحـون في أكثـرِ المَـوَاطنِ، والآبَـاءُ يَخسَرونَ دائمًا، أمّا الـصَبَايا المُنتَقِلاتُ كالـسِلعَ[1] مِـن مَنـزِلٍ إلى آخَـرَ فتزُولُ بهجَتُهُنَّ، ونَظيرُ الأمتعةِ العَتيقةِ يَـصيرُ نَـصيبُهن زَوَايَـا المنَـازلِ حيثُ الظُلمةُ والفَناءُ البَطيء.

إنَّ المَدنيَّةَ الحَاضرةَ قد أنمَتْ مَدارِكَ المَرأةِ قَليلاً، ولكنَّهـا أكثَـرَتْ أوجَاعَها بتَعمِيم مطَامِعِ الرَجُل. كانَتِ المرأةُ بالأمسِ خَادِمـةً سَـعيدةً فصَارَتِ اليَومَ سَيِّدةً تَعِسَة. كانَتْ بالأمسِ عَمياءَ تَسيرُ في نُـور النَهـارِ فأصبَحَتْ مُبصِرَةً تَسيرُ في ظُلمَةِ اللَيل. كانَت جَميلةً بجَهْلِهـا، فَاضِـلةً ببسَاطَتِها، قَوِيّةً بضُعفِها، فصَارَتْ قَبيحةً بتَفنُّنِها، سَـطحيَّةً بمَـدارِكِها بَعيدةً عن القَلب بمَعَارِفها. فهَل يجيءُ يَـومٌ يَجتمـعُ في المَـرأةِ الجَـمالُ بالمَعرِفة، والتفنُّنُ بالفَضيلة، وضُعفُ الجَسَدِ بقُـوَّةِ الـنَفس؟ أنَـا مِـنَ القَائِلينَ: إنَّ الارتقَاءَ الرُوحِيَّ سُنَّةٌ[2] في البَشر، والتقـرُّبَ مـنَ الكَـمالِ

(١) السِلعَ: ج سِلعَة: المَتاع وما يُتَاجَرُ به.
(٢) سُنَّة: قانون، نظام.

شَريعةٌ بَطيئةٌ لكنّها فَعَّالَةٌ، فإذَا كانتِ المَرأةُ قد ارتقَتْ بشيءٍ وتأخَّرَتْ بشيءٍ آخرَ فُلأنَّ العَقباتِ[1] التي تُبلِغُنَا قِمَّةَ الجَبلِ لا تَخلُو من مَكامِنِ اللُّصُوصِ[2] وكُهُوفِ الذِئاب. فَفِي هَذا الجَبلِ الشَبيهِ بالغَيبوبَةِ التِي تتقدَّمُ اليَقظَةَ - في هَذَا الجَبلِ القَابِضِ بكَفَّيه على تُرابِ الأجيَالِ الغَابِرَة وبُذُورِ[3] الأجيَالِ الآتية - في هَذَا الجَبلِ الغَريبِ بمُيُولِه وأمَانِيه لا تَخلُو مَدينةٌ مِن امرَأةٍ تَرمزُ بوجودِها عن ابنَةِ المُستقبل. وسَلمى كَرامه كانَت في بيرُوتَ رمزَ المَرأةِ الشَرقيَّةِ العَتيدَةِ، ولكنَّها كَالكَثِيرينَ الذِين يَعيشُون قَبلَ زَمانِهم قَد ذَهَبَتْ ضَحِيَّةَ الزَمَنِ الحَاضِر، ونَظيرَ زَهرةٍ اختَطَفَهَا تيَّارُ النَهرِ قَد صارَتْ قَهرًا في مَوكِبِ الحَياة نَحوَ الشَقاء.

وتزوَّجَ مَنصور بك مِن سَلمى فسَكَنَا معًا في مَنزلٍ فَخمٍ قَائِمٍ على شَاطِئِ البَحرِ في رَأسِ بَيروتَ حيثُ يَقطُنُ وجهَاءُ القَومِ والأغنِيَاءُ، وبَقِيَ فَارس كَرامَه وَحدَه في ذَلكَ البَيتِ المُنفرِدِ بَينَ الحَدَائِقِ انفرَادَ الرَاعي بينَ أغنامِه. ومضَتْ أيَّامُ العُرسِ وانقضَتْ لَيالي الأفراحِ، ومَرَّ

---

(١) العقبات: ج عَقَبَة: المرقى الصعبُ من الجبال.

(٢) مكامن اللصوص: أمكنة يختفي فيها اللصوص ليهجموا منها على حين غرَّةٍ على المارِّين، وينالوا منهم أموالهم. ومكامن: ج مَكمَن: وهو المكانُ الذي يُختفى فيه.

(٣) بذُور: ويُقال: بزور. وكلاهما بمعنى واحد: الصغار.

الشَهرُ الذي يَدعُوه النَاسُ عَسَلاً تَارِكًا وَرَاءَه شُهورَ الخَلِّ والعَلقَم مِثلَما تَترُكُ أمجادُ الحُرُوبِ جَمَاجِمَ القَتلَى في البَرِّيَّةِ البَعيدة... إنَّ بهرَجَةَ الأعرَاسِ الشَرقيّةِ تَصعَدُ بنُفُوسِ الفِتيَانِ والصَبَايَا صُعُودَ النَسرِ إلى مَا ورَاءِ الغُيُومِ ثُمَّ تَهبِطُ بهم هُبُوطَ حَجَرِ الرَحَى إلى أعمَاقِ اليَمِّ[1]، بَل هي مِثلُ آثَارِ الأقدَامِ عَلى رِمَالِ الشَاطِئِ لا تَلبَثُ أن تَمحُوهَا الأموَاجُ.

وذَهبَ الرَبيعُ وتَلاهُ الصَيفُ وجَاءَ الخَريفُ ومَحبَّتي لسَلمى تَتدرَّجُ من شَغَفِ فَتًى في صَباحِ العُمرِ بامرَأةٍ حَسناءَ إلى نَوعٍ مِن تِلكَ العِبادَةِ الخَرسَاءِ التي يشعُرُ بهَا الصَبيُّ اليَتيمُ نَحو رُوح أمِّه السَاكِنَةِ في الأبَديّةِ، فالصَبابةُ التي كانَتْ تمتَلِكُ كُلّيّتي قَد تحوّلَتْ إلى كَآبةٍ عَمياءَ لا تَرى غَيرَ نفسِها، والوَلَعُ الذي كانَ يَسْتَدِرُّ الدُموعَ مِن عَينيَّ قَدِ انقلَبَ وَلَهًا يَستَقْطِرُ الدَمَ مِن قَلبي، وأنّةُ الحَنِينِ التي كانَتْ تَملأُ ضُلُوعي أصبَحَتْ صَلاةً عَمِيقَةً تقدِّمُها رُوحي في السَكينةِ أمَامَ السَماءِ مُستَمِدَّةً السَعَادَةَ لسَلمى والغِبطةَ لبَعْلِها والطُمأنينة لوالدهَا[2]. ولكنَّ بَاطلاً كنت أشفَقُ

---

(١) حجر الرحى: حجر الطاحون؛ اليمّ: البحر.

(٢) نشهد في هذه الجملة أوجهًا مختلفة للحب ودرجاتٍ له وهي: الشغف، الصبابة، الوَلَع، الوَلَه، الحنين، الكآبة...

وأبتَهِلُ وأُصَلِّي لأنَّ تَعاسَةَ سَلمى كانَتْ عِلَّةً في دَاخِلِ النَفسِ لا يَشفِيها سِوى المَوت[1]. أمَّا بَعلُها فكانَ مِن أُولئِك الرِجَالِ الذين يَحصُلُون بغيرِ تَعبٍ على كُلِّ مَا يجعَلُ الحيَاةَ هَنيئةً ولا يَقنَعُون بل يَطمَحُون دَائمًا إلى مَا ليسَ لهم، وهكَذَا يَظَلُّون مُعذَّبين بمطَامِعِهم إلى نِهَايةِ أيَّامِهم. وبَاطلاً كُنتُ أرجُو الطُمأنينَةَ لفَارس كَرامَه لأنَّ صِهرَه لم يَكَدْ يستَلِمُ يدَ ابنتِهِ ويَحصُلُ على أموالِها الطَائِلَةِ حتَّى نسيَهُ وهَجَرَهُ بل صَارَ يطلُبُ حتفَهُ[2] توصُّلاً إلى ما بَقيَ من ثَروتِهِ.

كانَ مَنصور بك شَبيهًا بِعَمِّه المُطران بُولس غالب، وكانَت أخلاقُه كأخلاقِه، ونفسُه صُورةً مُصغَّرةً لنفسِه، ولم يَكُنِ الفَرقُ بينَهُما إلاَّ بما يَفرُقُ الرِياءُ عن الانحِطَاطِ. كانَ المُطرانُ يبلُغُ أمانِيَّهُ مُستَتِرًا بأثوَابِهِ البَنفسَجِيّةِ ويُشبعُ مَطامِعَهُ مُحتَمِيًا بالصَليب الذهبيِّ المُعَلَّقِ على صَدرِه، أمَّا ابنُ أخِيه فكانَ يفعَلُ كُلَّ ذَلك جِهارًا وعَنوةً. كانَ المُطرانُ يَذهبُ إلى الكنيسَةِ في الصّباحِ ويَصرِفُ ما بَقيَ من النَهارِ مُنتزِعًا الأموَالَ من الأَرامِلِ واليتَامَى وبُسَطَاءِ القَلبِ، أمَّا منصور بك فكَانَ

---

(١) السعادة والتعاسة، وهما شعور داخليّ يعتري النفس ولا دخلَ لبَهرجَةِ العالَم الخارجيِّ بخَلْق أيٍّ منهما.

(٢) حتفه: موته.

يَقضِي النَهارَ كُلَّه مُتَّبِعًا مَلذَّاتِهِ، مُلاحِقًا شَهَوَاتِهِ في تِلكَ الأَزِقَّةِ المُظلِمَةِ حيثُ يختَمِرُ الهَواءُ بأنفاسِ الفَسَاد.

كانَ المُطرانُ يقفُ يَومَ الأحدِ أمَامَ المَذبَحِ ويَعِظُ المُؤمنينَ بما لا يتَّعِظُ به، ويَصرِفُ أيَّامَ الأسبُوعِ مُشتَغِلاً بسِياسةِ البِلاد، أمَّا ابنُ أخيه فكانَ يَصرِفُ جميعَ أيّامِه مُتاجِرًا بنُفُوذِ عَمِّهِ بينَ طَالبي الوَظائِفِ ومُريدي الوَجَاهَة. كانَ المُطرانُ يَسِير مُختَبِئًا بسَتائِرِ الليلِ، أمَّا مَنصور بك فكَانَ يَمشي بشَجَاعَةٍ في نُورِ النَهَار.

كَذَا تَبيدُ[1] الشُعوبُ بينَ اللُصوص والمُحتالِينَ مِثلَما تَفنَي القُطعَانُ بينَ أنيابِ الذِئاب وقَواطِعِ الجَزَّارِينَ، وهكَذا تَستسلمُ الأُمَمُ الشَرقيَّةُ إلى ذَوي النُفُوسِ المُعْوَجَّةِ والأخلاقِ الفَاسِدةِ، فتَتراجَعُ إلى الوَراءِ، ثُمَّ تَهبِطُ إلى الحَضيض، فيمُرُّ الدَهرُ ويَسحَقُها بأقدَامِه مِثلَما تَسحَقُ مَطارقُ الحَديدِ آنيةَ الفُخَّار...

ومَاذا يَا تُرى يَجعَلُني الآنَ أُشغِلُ هَذهِ الصَفَحاتِ بالكَلام عن أُمَمٍ بَائِسةٍ يائِسَةٍ، وأنَا قد خَصَّصْتُها لتَدوينِ حِكايةِ امرَأةٍ تَاعِسَةٍ وتَصويرِ خيَالاتِ قَلبٍ وَجِيعٍ لم يَلْمُسهُ الحُبُّ بأفراحِهِ حتَّى صَفعَه

---

(١) تبيد: تفنى، تزول، تضمحلّ.

بأحزَانِه؟ لماذا تُراوِدُ الدُموعُ أجفَاني لِذِكرِ شُعوبٍ خَامِلةٍ مَظلومةٍ وأنا قد وَقفتُ دُموعي على ذِكرى أيّامِ امرَأةٍ ضَعيفةٍ لمْ تُعانِقِ الحيَاةَ حتَّى احتَضَنَها المَوت؟ ولكن، أليستِ المرأةُ الضَعيفةُ هي رمزَ الأمّةِ المَظلومةَ؟ أليستِ المرأةُ المتوَجِّعَةُ بينَ مُيُول نَفسِها وقُيودِ جَسدِها هي كالأمَّةِ المُتعذِّبَةِ بينَ حُكَّامِها وكُهَّانِها؟ أوَليسَتِ العواطفُ الخفيَّةُ التي تذهبُ بالصَبيّةِ الجَميلةِ إلى ظُلمَةِ القَبرِ هي كالعَواصِفِ الشَديدةِ التي تَغمُرُ حيَاةَ الشُعوبِ بالتُراب؟ إنَّ المَرأةَ من الأمّةِ بمَنزلةِ الشُعاعِ من السِراجِ، وهل يَكونُ شُعاع السِراجِ ضَئيلاً إذَا لم يَكُن زيتُه شَحِيحًا؟

مضَتْ أيَّامُ الخَريفِ وعَرَّتِ الرياحُ الأشجارَ مُتلاعِبَةً بأورَاقِها الصَفراءِ مِثلَما تُداعِبُ الأنوَاءُ[1] زَبَدَ البَحرِ، وجَاءَ الشِتاءُ بَاكيًا مُنتَحِبًا وأنَا في بيروتَ ولا رَفيقَ لي سِوى أحلامٍ تَتَصاعَدُ بنفسي تَارةً فَتَبلِغُها الكَواكبَ، وتَنخفِضُ بقَلبي طَورًا فتُلحِدُه[2] بجَوفِ الأرضِ.

إنَّ النَفسَ الكَئيبةَ تجدُ راحَةً بالعُزلةِ والانفِرادِ فتهجرُ الناسَ مِثلَما يَبتعِدُ الغَزالُ الجَريحُ عن سربِهِ ويتَوارَى في كَهفِهِ حتَّى يَبرأَ أو يَمُوتَ[3].

---

(١) الأنواء: ج نوء: عاصفة بحرية.

(٢) تُلحِدُه: تدفُنه.

(٣) سربِهِ: قطيعة؛ يتوارى: يختفي؛ يبرأ: يشفي.

فذاتَ يَومٍ سَمِعْتُ باعتِلالِ[1] فارس كَرامَه، فتركتُ وَحدتي وذَهبتُ لعِيادَتِهِ مَاشِيًا عَلى مَمَرٍّ مُنفردٍ بينَ أشجَارِ الزَيتُونِ المُتَلَمِّعَةِ أوراقُها الرَصَاصِيَّةُ بقَطراتِ المَطر، مُتنحِّيًا[2] عَن الطَريقِ العُمُوميّةِ حيثُ تُزعِجُ ضَجَّةُ المَركباتِ سَكينةَ الفَضاءِ.

بلغتُ منزلَ الشَيخِ ودَخلتُ عَليه فوَجَدتُه مُلقىً على فراشِه مُضنَى[3] الجِسم، شَاحِبَ الوَجه، أصفرَ اللونِ، قَد غرقَتْ عَيناهُ تَحت حَاجِبَيه فبَانَتَا كهُوَّتَيْنِ عَميقَتَين مُظلِمتَين تَجُول فيهما أشبَاحُ السَقَمِ[4] والألم، فالمَلامحُ التي كانَت بالأمسِ عُنوانَ البَشاشَةِ والانبسَاطِ قد تَقلَّصَتْ واكفهَرَّتْ وأصبحَتْ كصَحِيفةٍ رَماديَّةٍ مُتجعِّدَةٍ تَكتبُ عليها العِلَّةُ سُطورًا غَريبةً مُلتَبِسَة[5]. واليَدانِ اللتانِ كانتا مُغَلَّفَتَيْنِ باللُطفِ واللدَانةِ قد نَحلَتَا[6] حتَّى بَدَتْ عِظامُ أصَابِعِهما مِن تحتِ الجِلدِ كقُضبانٍ عَاريةٍ تَرتَعشُ أمَامَ العَاصِفة.

---

(١) اعتلال: مرض.
(٢) متنحِّيًا: مبتعدًا.
(٣) مُضني: متعب الجسم، مهدود القوى.
(٤) السَقَم: المرض.
(٥) مُلتبسة: غامضة.
(٦) اللدانة: الطلاوة، الطراوة، النعومة؛ نحلتا: هزلتا، ضعفتا.

ولمّا دَنوتُ منه سَائِلاً عَن حَالِه، حَوَّلَ وَجهَهُ المَهزُولَ نَحوي وظهرَ على شَفتَيه المُرتَجِفتَين خيالُ ابتسامةٍ مُحزِنة، وبِصَوتٍ ضَعيفٍ خَافِتٍ خِلتُه آتيًا مِن وَراءِ الجُدران قَال: اذهَبْ، اذهَبْ يَا بني إلى تِلكَ الغُرفةِ وامسَحْ دُموعَ سَلمى وسَكِّنْ رَوعَها ثُمَّ عُدْ بِهَا إليَّ لِتَجلِسَ بجَانِبِ فِراشي...

دخلتُ الغُرفةَ المُحاذِيَة[1] فَوجدتُ سَلمَى مُنطرحَةً على مَقعدٍ وقَد غمَرَتْ رَأسَها بزَندَيْها وغَرَّقَتْ وَجهَها بالمسَانِدِ، وأمسَكَتْ أنفَاسَها كيلا يَسمَعَ والدُها نَحيبَها. فاقتربتُ منها ببُطءٍ ولفظتُ اسمَها بصوتٍ أقرَبَ إلى التنهُّدِ مِنه إلى الهَمْس، فتَحرَّكَتْ مُضطربةً كنائمٍ تُراوِدُهُ الأحلامُ المُخيفةُ، ثُمَّ استوَتْ على مَقعدِهَا ونظرَتْ إليَّ بِعينَين شَاخِصَتَيْنِ جَامِدَتَيْنِ كأنّها تَرَى شَبَحًا في عَالَمِ الرُؤيا ولا تُصدِّقُ حَقِيقة وُجُودي في ذَلك المَكان.

وبَعد سُكُوتٍ عَميقٍ أرجعَنَا بتَأثِيراتِه السِحريّةِ إلى تِلكَ السَاعاتِ التي سَكَرْنا فيها من خَمرةِ الآلهةِ، مَسحَتْ سَلمى دُمُوعَها بأطرافِ

(١) المحاذية: التي بإزاء.

أنامِلِها[1] وقالت مُتَحسِّرَةً: أرأيتَ كيفَ تبدَّلتِ الأيّامُ؟ أرأيتَ كيفَ أضَلَّنَا الدَهرُ فسِرنا مُسرعَيْنِ إلى هذه الكُهُوفِ المُفزِعَةِ؟ في هَذَا المكانِ جَمعَنا الرَبيعُ في قَبضةِ الحُبِّ، وفي هَذَا المكان يَجمَعُنا الآن الشِتاءُ أمَام عَرشِ المَوت، فما أبهَى ذلك النَهارَ! ومَا أشدَّ ظُلمةَ هَذَا الليل!

قالَتْ هَذِهِ الكَلِماتِ وقَدِ ابتَلَعَتِ الغَصَّاتُ أواخِرَها، ثمّ عَادَتْ فسَتَرَتْ وجهَها بيدَيْها كأنَّ ذِكرى المَاضي قَد تَجسَّدَتْ ووقفَتْ أمامَها فلم تَشَأ أن تَرَاها. فوضَعْتُ يَدي على شَعرِها قَائلاً: تعالَيْ يَا سَلمى، تعالَي نَنتصِبْ كالأبرَاجِ أمَامَ الزَوبَعَة. هَلُمِّي نَقِفْ كالجُنُودِ أمَامَ الأعدَاءِ مُتَلقِّينَ شِفَارَ السُيوفِ بصُدُورنا لا بظُهُورِنا، فإن صُرِعْنَا نَموتُ كالشُهدَاءِ، وإن تَغَلَّبْنَا نَعيشُ كالأبطَالِ... إنَّ عَذَابَ النَفسِ بثَباتِها أمَامَ المَصاعِبِ والمتَاعِبِ لهو أشرَفُ من تَقهقُرِها إلى حيثُ الأمنُ والطُمأنينة. فالفَراشةُ التي تظلُّ مُرفرِفةً حَولَ السِراجِ حتَّى تَحترقَ هي أسمَى من الخُلد[2] الذي يَعيشُ بِراحةٍ وسَلامةٍ في نَفَقِهِ

---

(١) أنامل: ج أُنمُلَة: رأس الأصبع.

(٢) الخُلد: ج مناجد من غير لفظها: نوع من القواضم يعيش تحت الأرض وهو ليس له عينان ولا أذنان.

المُظلِم[1]. والنَواةُ التي لا تَحتملُ بَرْدَ الشِتاءِ وثَوراتِ العَناصِرِ لا تَقوى على شَقِّ الأرضِ ولن تَفرحَ بجَمالِ نَيسانَ (أبريل)... هَلُمِّي نَسِرْ يا سَلمَى بقَدَمٍ ثَابتَةٍ على هذهِ الطَريقِ الوَعْرةِ رافِعينَ أعينَنا نَحوَ الشَمسِ كيلا نَرَى الجَماجِمَ المَطروحَةَ بَينَ الصُخُورِ، والأَفَاعي المُنسَابَةَ بينَ الأشوَاكِ[2]، فإن أوقَفَنا الخَوفُ في مُنتصفِ الطَريقِ أسمَعَتْنا أشبَاحُ الليلِ صراخَ الاستِهزاءِ والسُخريَةِ، وإنْ بَلَغْنا قِمَّةَ الجَبلِ بشَجَاعَةٍ تَترنَّمُ مَعنا أروَاحُ الفَضَاءِ بأنشُودَةِ النَصرِ والاستِظهار... خَفِّفِي عنكِ يا سَلمى وجَفِّفِي دُمُوعَك وَأخفِي هذه الكآبَةَ الظَاهرةَ على مُحيَّاكِ وقُومي نَجلِسْ بجَانِبِ فِراشِ والدِكِ لأنَّ حياتَه من حيَاتِك وشَفاءَه بابتِسَامِكِ.

فنظرَتْ إليَّ نَظرةً مِلؤُهَا الحنَانُ والرَأفةُ والانعِطَافُ ثمّ قالت: أتطلبُ مِني الصبرَ والتَجلُّدَ وفي عَينَيك مَعنى اليَأسِ والقُنُوط؟ أيُعطِي الفَقيرُ الجَائعُ خبزَه للجَائع الفَقير؟ أَوَيَصِفُ العَليلُ دَوَاءً

(١) دعوة إلى الثورة حتى ولو كان الموتُ هو الثمن.

(٢) الجماجم المطروحة والأفاعي المنسابة: أراد بالأولى الجماعات المسَيَّرة كالقطعان؛ فهم، بسلبيَّتهم وتبعيَّتهم، أشبه بالجماجم الفارغة المرمية بين الصخور، وأراد بالثانية (الأفاعي) الخبثَ والمكر والحيلة والفساد المتفشِّي بين الذين يُسَيِّرون المجتمع.

لعَليلٍ آخرَ وهُو أحرَى بِالدَوَاء؟

ثُمّ وقفَتْ وسارَتْ أمَامي مُنحنيةَ الرَأسِ إلى غُرفةِ وَالدِها. جلَسْنا بقُربِ مَضجَعِ الشَيخِ العَليلِ وسَلمى تَتكلّفُ الابتسَامَ وهُدوءَ البَالِ وهُو يتكلّفُ الرَاحةَ والقُوَّةَ، وكُلٌّ مِنهُما شَاعرٌ بلَوعَةِ الآخرِ، عَالِمٌ بضُعفِه، سَامعٌ غَصَّاتِ قَلبِهِ، فكَانَا مِثلَ قُوَّتَينِ مُتصَارعتَين يُفنِي بعضُها بَعضًا في السَكينة. والدٌ دَنِفٌ[1] يـذُوب ضَنًى لتَعاسَةِ ابنتِه، وابنةٌ مُحِبَّةٌ تَذبُلُ مُتوجِّعةً بعِلَّةِ والدِها. نفسٌ راحِلةٌ ونفسٌ يَائِسَةٌ تَتعانَقانِ أمَامَ الحُبِّ والمَوت، وأنَا بينَهما أتحَمَّلُ مَا بي وأُقاسِي مَا بهما. ثلاثةٌ جَمعَتْهم يَدُ القَضاءِ ثُمّ قبضَتْ عليهم بشِدَّةٍ حتَّى سحَقَتْهم: شَيخٌ يُمثّلُ بَيتًا قَديمًا هَدمَهُ الطُوفان، وصَبيّةٌ تُحاكي زَنبقةً قَطَعَ عُنُقَهَا حَدُّ المِنْجَلِ[2]، وفتًى يُشابِهُ غَرسةً ضَعيفةً لَوَتْ قَامتَها الثُلوجُ، وجميعُنا مِثلُ أُلعوَبةٍ بين أصَابعِ الدَهر.

وتحرّكَ الشيخُ إذا ذَاك بينَ اللُحُفِ ومدَّ يدَه النَحيلةَ نحو سَلمى، وبصَوتٍ أودَعَهُ كُلَّ مَا في قَلبِ الأبِ من الرقّةِ والرَأفةِ وكُلَّ مَا في

---

(١) دنف: مريض؛ يذوبُ ضنىً: من المرض والهزال.
(٢) المِنْجَل: ج مناجل: آلة من حديد عكفاء يُقضَبُ بها الزرعُ ونحوه (من نَجَلَ الشيءَ إذا رمى به).

صَدرِ العَليل من السَقَم والألم قَال: ضَعي يدَك في يَدي يا سَلمى.

فمَدَّت يدَها وألقَتْها بينَ أصابعِه فَضَمَّها بلُطفٍ ثمَّ زَادَ قَائِلاً: لقَد شَبعتُ منَ السِنينَ يَا وَلدِي، قَد عِشتُ طَويلاً وتَلذَّذتُ بكُلِّ مَا تُثمِرُهُ الفُصُولُ وتمتَّعْتُ بكُلِّ ما تُبرِزُهُ الأيّامُ والَليَالي. قَد لاحقتُ الفَراشَ صَبيًّا، وعَانقتُ الحُبَّ فتًى، وجمَعْتُ المَال كَهلاً، وكنتُ في جَميعِ هَذِهِ الأدوَارِ سَعيدًا مُغتَبِطًا. فقدتُ أمَّكِ يَا سَلمى قبَل أن تبلُغي الثَالثةَ ولكنَّها أبقَتْكِ لي كَنزًا ثمينًا، فكُنتِ تَنمِينَ بسُرعةٍ نُمُوَّ الهِلال، وتَنعَكِسُ على وَجهِكِ مَلامِحُ أُمِّكِ مِثلَما تَنعكِسُ أشعَّةُ النُجُومِ في حَوضِ مَاءٍ هَادِئ، وتَظهَرُ أخلاقُها ومَزَاياها بأعمَالِكِ وَأقوالِكِ ظُهورَ الحلَي الذَهبيةِ من ورَاء النِقابِ الرَقِيق، فتَعزّيتُ بكِ يَا وَلدي لأنّكِ كُنتِ مثلَها جَميلةً وحَكيمة...

والآنَ قد صِرتُ شَيخًا طَاعِنًا[1] ورَاحةُ الشيُوخ بينَ أجنحَةِ المَوتِ النَاعِمَة، فتعزَّيْ يا وَلدي لأنّني بَقيتُ لأرَاكِ امرأةً كامِلةً، وافرَحي لأنّي سَأبقَى بكِ حَيًّا بعد مَوتي. إنَّ ذَهَابي الآنَ مِثلُ ذَهَابي غَدًا أو بَعده؛ لأن أيّامَنا مثلُ أورَاقِ الخَريفِ تَتَساقطُ وتَتبدَّدُ أمَامَ وَجهِ

(١) شيخًا طاعنًا: شيخًا كبيرًا في السنّ.

الشَمس. فإن أسرَعَتْ بيَ إلى الأبديّـةِ فَلأنّهـا عَلِمَـتْ أنَّ رُوحِـي قـدِ اشتاقَتْ إلى لقَاءِ أُمِّك...

لَفَظَ الكَلماتِ الأخيرةَ بنَغمـةٍ مُفعَمَـةٍ بحَـلاوةِ الحَنـينِ والرَجَـاءِ، ولاحَتْ على وَجْهِه المُنقبضِ أشعَّةٌ شَبيهةً بذلكَ النُور الذي ينبثِقُ مـن أجفَانِ الأطفَال، ثُمَّ مَدَّ يدَه بينَ المَسانِدِ المُحيطَةِ برَأسِهِ وانتَشَلَ صُـورةً صَغِيرةً قَديمةً يمَنْطِقُهَا إطَارٌ مِنَ الذَهَبِ قَد نَعَّمَـتْ حُـدودَه مَلامِـسَ الأيدِي ومَحَتْ نُقوشَه قُبَلُ الشِفَاه، ثُمَّ قَالَ بِدُونَ أن يُحـوِّلَ عَينَيـه عَـن الرَسم: اقتَربي يَا سَلمى، اقتَربي مِنِّي يَـا وَلَـدي لأُرِيَـكِ خَيـال أُمِّـكِ. تَعالَيْ وانظُري ظِلَّها على صَفحَةٍ مِنَ الوَرَق.

فدنَتْ سَلمى ماسِحَةً الدُمُوع من مُقلتَيْها كَيلا تَحُول بينَ نَاظرَيْهـا والرَسم الضَئِيل، وبَعـدَ أن حَـدَّقَتْ إليـهِ طَـوِيلاً كأنّـهُ مِـرآةٌ تَعكِـسُ مَعَانيها وشَكلَ وَجهِها قَرَّبَتْه مِن شَفَتَيْها وقبَّلَتْه بلهفَةٍ مِرارًا مُتَوالِيَةً ثُمَّ صَرَخَتْ قَائِلَةً: يا أُمَّاه. يا أُمَّاه. يا أُمَّاه! ولم تَزِدْ على هَـذِهِ الكَلمـةِ، بَـل عَادَتْ فوَضعَتِ الرَسمَ على شَفتَيْها المُرتَعِشَتَيْنِ كأنّها تُريدُ أن تَبُثَّ فيـه الحَياةَ بأنفَاسِها الحَارَّة...

إنَّ أعذبَ مَا تُحَدِّثُهُ الشِفَاهُ البَشريَّةُ هُو لفظَةُ «الأم»، وأجملُ مُنـاداةٍ

هي: يا أُمِّي. كلمَةٌ صَغيرةٌ كَبيرةٌ مَملوءَةٌ بالأمَـلِ والحُـبِّ والانعِطَـافِ وكُلِّ مَا في القَلبِ البَشريِّ مِنَ الرقَّةِ والحَلاوةِ والعُذُوبَة. الأُمُّ هي كُـلُّ شَيءٍ في هَذِهِ الحَياةِ، هي التَعزيةُ في الحُزنِ، والرَجَاءُ في اليَأسِ، والقُـوّةُ في الضُعفِ، هي يَنبوعُ الحُنُوِّ والرَأفةِ والشَفقةِ والغُفران، فالذي يَفقِـدُ أُمَّه يَفقِدُ صَدرًا يَسنُدُ إليهِ رأسَه ويَدًا تُبارِكُه وعَينًا تَحرسُه...

كُلُّ شَيءٍ في الطَبيعةِ يَرمُزُ ويتكَلَّم عَن الأُمومةِ: فَالـشَمسُ هـي أُمُّ هَذِهِ الأَرضِ تُرضِعُهَا حَرارَتَها وتَحتَضِنُها بنُورِهَـا ولا تُغادِرُهـا عِنـدَ المَساءِ إلاَّ بعدَ أن تُنوِّمَها على نَغمةِ أمـوَاجِ البَحـرِ وتَرنيمَـةِ العَـصَافيرِ والسَواقي، وهذهِ الأرضُ هي أمٌّ للأشجَارِ والأزهَارِ تَلِدُها وتُرضِعُها ثمَّ تَفطِمُها[1]. والأشجَارُ والأزهَارُ تَـصيرُ بـدَورِهَا أُمَّهـاتٍ حَنُونـاتٍ للأثمارِ الشَهيّةِ والبُذُورِ الحَيَّـةِ. وأُمُّ كُـلِّ شَيءٍ في الكِيـانِ هـي الـرُوحُ الكُلِّيةُ الأزليّةُ الأبديّةُ المَملوءَةُ بِالجمالِ والمَحبّةِ.

وسَلمى كَرامَه لم تكُن تَعرفُ أُمَّها لأنّها ماتَتْ وهـي طِفلَـةٌ، وقَـد شَهقَتْ مُتأثّرةً عِندَما رَأتْ رَسْمَها ونادَتْها: يا أُمَّاه، قَـسْرَ إرَادتِهـا، لأنَّ لفظَةَ الأُمِّ تَختبئُ في قُلُوبنا مِثلَما تَختبئُ النَواةُ في قَلـبِ الأرض، وتَنبثـقُ

---

(١) تفطمها: تفصلها عن الرضاع وتمنعها منه.

من بَينَ شِفاهنا في سَاعَات الحُزن والفَرح كما يتصَاعَدُ العِطرُ من قَلبِ الوَردةِ في الفضَاءِ الصَافِي والمُمطِر.

كانَت سَلمى تُحدِّقُ إلى رَسم أُمِّها ثمَّ تُقَبِّلُه بِلَهفةٍ ثُمَّ تَلُزُّه صَدرها الخَفُوق ثُمَّ تَتَأوَّهُ مُتنهّدةً ومعَ كُلِّ تنهُّدةٍ تَفقِدُ جُزءًا مِن قُواهَا، حتَّى إذَا مَا وَهَتِ[1] الحياةُ في جَسَدِها النَحِيلِ هَوَتْ وسَقَطَتْ بجَانِبِ سَريرِ أبيهَا، فوضَعَ كِلتَا يَدَيهِ عَلى رَأسِها قَائِلاً: قَد أريتُكِ يَا وَلدي شَبَحَ أُمَّكِ على صَفحةٍ مِنَ الوَرق، فأصغِي إليَّ لأُسمِعَكِ أقوَالَهَا.

فرفعَتْ سَلمَى رأسَها مثلَما تَفعلُ الفِراخُ في العُشِّ عِندَما تَسمَعُ حَفيفَ أجنحَةِ العُصفورَةِ بَينَ القُضبانِ، ونَظرَتْ إليه مُصغِيةً صَاغِرَةً[2] كأنَّ ذَاتَها المَعنويّةَ قَدِ استَحالَتْ إلى أعيُنٍ مُحَدِّقَةٍ وآذَانٍ وَاعِيَة.

فقَالَ والدُها: كُنتِ طِفلةً رَضِيعةً عِندَما فقدَتْ أُمُّكِ والدَها الشَيخَ فحَزِنَتْ لفَقْدِه وبكَتْ بُكاءَ حَكيمٍ مُتَجلّد، ولكنّها لم تعُدْ[3] مِن جَانبِ قَبرِه حتَّى جَلسَتْ بجَانبي في هَذِهِ الغُرفَةِ وأخذَتْ يَدي

(١) وَهَتْ: ضعفت.

(٢) صاغرة: خاضعة.

(٣) الأصوب قوله: لكنها ما عادت، بدل: لكنها لم تعُدْ...

براحَتَيْها وقَالت: قَد مَاتَ وَالدي يَا فَارس وأنتَ بَاقٍ لي وهَذِهِ هي تَعزِيَتي. إنَّ القَلبَ بعَواطفِهِ المُتَشَعِّبَةِ يُماثِلُ الأَرزةَ بأغصَانِها المُتَفرِّقةِ، فَإذَا مَا فقدَتْ شَجرةُ الأَرزِ غُصنًا قَويًّا تَتألَّم[1] ولكنَّها لا تمُوتُ بل تُحوِّلُ قُواهَا الحيويَّةَ إلى الغُصنِ المُجَاوِرِ لينمُوَ ويَتَعَالى ويَملأَ بفُروعِهِ الغَضَّةِ مكانَ الغُصنِ المَقطوعِ. هَذَا مَا قالَتْه والدتُكِ يا سَلمى عندَما مَاتَ أبوُها، وهَذَا ما يَجِبُ عَليكِ أن تَقُولِيه عِندَما يَأخُذُ المَوتُ جَسَدي إلى راحَةِ القَبرِ، ورُوحي إلى ظِلِّ الله.

فأجابَتْ سلمى مُتفجِّعَةً: فقدَتْ أُمِّي والدَها فبَقيتَ أنتَ لها، فمَنْ يَبقَى لي إذَا فقدتُكَ يَا والدي؟ ماتَ والدُها وهي في ظِلال زَوجٍ مُحِبٍّ فَاضِل أمين، ماتَ والدُها فبقيَ لها طِفلةٌ تغمُرُ رَأسَها الصَغيرَ بثديَيْها وتُطوِّقُ عُنُقَها بذرَاعَيْها، فمَنْ يَبقَى لي إذَا فقدتُكَ يا والدي؟ أنتَ أبي وأمّي ورَفيقُ حَدَاثتي ومُهذّبُ شَبيبتي، فبِمَنْ أستَعيضُ إذَا مَا ذَهبتَ عنِّي؟

قَالت هَذَا وحَوَّلَتْ عَينَيها الدَامِعَتَيْنِ نَحوي، وأمسَكَتْ بيَمينِها طَرَفَ ثَوبي ثمَّ قَالت: ليسَ لي غيرُ هَذَا الصَديقِ يَا وَالدِي ولَن يبقَى لي

---

(١) الأصوب قوله: تألمت (في الماضي).

سِواهُ إذَا مَا تَركتَني، فهَل أتَعزَّى به وهو مُتعـذّبٌ مِـثلي؟ هَـل يتعـزَّى كسيرُ القَلبِ بالقلبِ الكَسِيرِ؟ إنَّ الحزينةَ لا تتَصبَّرُ بُحزنِ جَارَتِهـا كـما أنَّ الحَمَامَةَ لا تَطيرُ بأجنِحَةٍ مَكسُورة. هُـو رَفيـقٌ لنَفـسي ولكنَّنـي قَـد أثقَلْتُ عاتِقَهُ بأشجَاني[1] حتَّى لوَيْتُ ظهرَه وسَـمَلتُ عَينَيـه بعَـبرَاتي[2] فَلم يَعُدْ يَرى غَيرَ الظُلمـة. هُـو أخٌ أُحبُّـه ويُحبُّنـي ولكنَّـه مِثـلَ جَميـعِ الإخوَةِ يَشتركُ بالمُـصيبةِ ولا يُخفِّفُهـا ويُـساعِدُ بالبُكـاءِ فيزيـدُ الـدَمعَ مَرارةً والقَلبَ احترَاقًا.

كُنتُ أسمَعُ سَلمى مُتكلّمةً وعَواطِفي تنمُو وصَدري يَضيقُ حتَّى شَعرتُ بأن أضلُعي تَكادُ تتفجَّرُ حَنَاجِرَ وفُوهاتٍ، أمّـا الـشَيخُ فكَـان ينظرُ إليها وجَسدُه المَهزولُ يَهبِطُ ببطءٍ بين الوَسَائِدِ والمَـسَانِدِ، ونفـسُه المُتعبةُ ترتجِفُ كشُعلةٍ السِراجِ أمَـامَ الـرِيح، ثُـمَّ بَـسطَ ذِراعَيْـه وقَـال بهُدوء:

دَعيني أذهبُ بسَلام يا وَلدي، لقد لمحَتْ عَيناي مَـا وراءَ الغُيـومِ فلَن أحوِّلهُما نَحوَ هذِهِ الكُهوفِ. دَعيني أطيرُ فقـد كـسَرْتُ بـأجنِحَتي

---

(١) أشجاني: أحزاني.

(٢) عبراتي: دموعي؛ سمَلْتُ: فَقَأتُ، أعميتُ.

قُضبانَ هَذَا القَفَص... قَد نَادَتْني أُمُّك يا سَلمى فَلا تُوقِفيني... هَا قَد طَابَتِ الرِيحُ وتَبَدَّدَ الضَبابُ عن وَجهِ البَحرِ فَرَفَعَتِ السَفينةُ شِراعَها وتأهَّبَتْ للمَسيرِ فَلا تُوقِفيها ولا تَنزَعي دَفَّتَها. دَعي جَسَدي يَرقُدُ مَع الذينَ رَقَدُوا، ودَعي رُوحي تَستيقظُ لأنَّ الفَجرَ قَد لاحَ والحُلمَ قَد انتَهَى... قَبِّلي رُوحي برُوحِكِ... قَبِّليني قُبلةَ رَجَاءٍ وأملٍ، ولا تَسكُبي قَطرةً مِن مَرارةِ الحُزنِ على جَسَدي لِئَلاَّ تَمتَنعَ الأعشَابُ والأزهَارُ عن امتِصَاصِ عَنَاصِره. ولا تَذرِفي دُمُوعَ اليَأسِ على يَدَيَّ لأنّها تَنبُتُ شَوكًا على قَبري. ولا ترسُمي بزَفرَاتِ الأسَى سَطرًا على جَبهتي لأنَّ نَسيمَ السَّحَرِ يَمُرُّ ويَقرأُه فَلا يَحمِلُ غُبارَ عِظَامي إلى المُروجِ الخَضرَاء... قَد أحببتُك بالحيَاةِ يا وَلدي وسَوفَ أحبُّكِ بالمَوتِ فتظلُّ رُوحي قَريبةً منكَ لتَحمِيكِ وتَرعَاكِ.

والتفتَ الشَيخُ إليَّ وقَد انطبقَتْ أجفَانُه قَليلاً فَلم أَعُدْ أرَى سِوى خَطّينِ رَمَادِيَّينِ مَكانَ عَينيَه، ثُمَّ قَال وسَكينةُ الفَناءِ تَستَرِقُ ألفاظَه: أمَّا أنتَ يا بُني فكُن أخًا لسَلمى مِثلَما كَانَ والدُكَ لي. كُن قَريبًا مِنها في سَاعَاتِ الشِدَّةِ، وكُن صَدِيقًا لهَا حتَّى النِهَايَة، ولا تَدَعْهَا تَحْزَنُ لأنَّ الحُزنَ على الأموَاتِ غَلطةٌ من أغلاطِ الأجيَالِ الغَابرة، بَلِ اتلُ على

مَسمَعِها أحَاديثَ الفَرحِ وَأَنشِدْهَا أغانِي الحيَاةِ فتَسلُو وتَتَنَاسَى.. قُل لأبيكَ أن يَذكُرَني.. سَلْهُ فيُخبرَك عن مَآتي أيّامي عِندَما كانَ الشَبابُ يُحلِّقُ بنَا إلى الغُيُوم... قُل لَهُ إنّني أَحْبَبْتُه بشَخصٍ ابنهِ في آخرِ سَاعةٍ مِن حيَاتي...

وسَكتَ دَقيقةً وظلَّتْ أشبَاحُ ألفاظِهِ تَدُبُّ على جُدرانِ الغُرفة، ثُمَّ عَادَ فنَظرَ إليَّ وإلى سَلمى بوقتٍ وَاحِدٍ وقَال هَمسًا: لا تَدْعُوَا طَبيبًا ليطيلَ بمسَاحِيقِه سَاعاتِ سِجني، لأنَّ أيّامَ العُبوديّةِ قَد مَضَتْ فَطلبَتْ رُوحي حُريّةَ الفَضَاء. ولا تَدْعُوَا كَاهِنًا إلى جَانِبِ فِراشي لأنَّ تَعَازِيمَه[1] لا تُكفِّرُ عن ذُنُوبي إن كُنتُ خَاطِئًا، ولا تُسرعُ بي إلى الجَنّة إن كُنتُ بارًّا. إنَّ إرادةَ البشرِ لا تُغيِّرُ مشيئةَ الله كَما أنَّ المُنَجِّمينَ لا يُحوِّلونَ مَسِيرَ النُجوم. أمَّا بعدَ مَوتي فَلْيَفْعَلِ الأطبَّاءُ والكُهّانُ مَا شَاؤوا، فاللُجَّةُ[2] تُنادِي اللُجَّةَ أمَّا السَفينةُ فتظلُّ سَائِرةً حتَّى تَبلُغَ السَاحِلَ...

وعِندَما انتصفَ ذلكَ الليلُ المُخيفُ فتَحَ فَارس كَرامَه عَينَيه الغَارقتَيْن في ظُلمةِ النَزْعِ، فتَحهُما لآخرِ مَرّة، وحَوَّلَهُما نَحوَ ابنتِه

(١) تعازيمه: صلواته.
(٢) اللُجَّة: الموج الشديد.

الجَاثية[1] بِجَانِب مَضجَعِه، ثُمَّ حَاوَلَ الكَلامَ فلم يَستَطِعْ لأنَّ الموتَ كانَ قَد تَشرَّبَ صَوتَهُ، فخرجَتْ هَذه الألفَاظُ لُهَاثًا عَميقًا مِن بَينِ شفتَيْه: هَا قَد ذَهبَ الليلُ... وجَاءَ الصَباحُ... يَا سَلمى... يَا... يا سَلمى...

ثُمَّ نكَسَ رأسَه وابيَضَّ وجَهُه وابتسمَتْ شَفِتاهُ وأسلَمَ الرُوح.

ومَدَّتْ سَلمى يدَها ولمسَتْ يَدَ والدِها فوجَدَتْها بَاردَةً كالثَلج، فرفعَتْ رأسَها ونظرَتْ إليهِ، فرأَتْ وَجْهه مُبَرقَعًا بنِقَابِ المَوت، فجَمَدَتِ الحيَاةُ في جَسَدِها، وجَفَّتِ الدُموع في مَحَاجِرِها، فلم تَتَحرَّكْ ولم تَصْرُخْ ولم تتأوَّهْ، بَل بَقِيَتْ مُحدِّقَةً إليهِ بعَينَينِ جَامِدَتَينِ كَعينَي التِمثال، ثُمَّ تَراخَتْ أعضَاؤُها مِثلَما تَتَرَاخَى طَيّاتُ الثَوبِ البَليل، وهبطَتْ حتَّى لمَسَتْ جَبهتُها الأرضَ، ثُمَّ قَالت بهُدُوء: أَشفِقْ يَا ربُّ وشَدِّدْ جَميعَ الأجنحَةِ المُتكسِّرة.

***

ماتَ فَارس كَرامَه، وعانقَتِ الأَبَدِيّةُ رُوحَه، واسترجَعَ التُرَابُ جَسَدَه، واستَولى مَنصور بك على أموَالِهِ، وظَلَّتِ ابنتُه أسِيرةَ تعاسَتِها

---

(١) الجاثية: الراكعة.

تَرى الحَياةَ مأساةً هائلةً تُمثِّلُها المخَاوفُ أمَامَ عَينَيها.

أمَا أنا فكنتُ ضَائِعًا بَينَ أحلامِي وهَوَاجِسي، تَنتَابُني الأيَّامُ واللَيالي مثلَما تَنتابُ النُسورُ والعِقبانُ لحمانَ الفَريسةِ. فكم حَاولتُ أن أفقِدَ ذَاتي بَينَ صَفَحَاتِ الكُتُبِ لَعلَّني استأنسُ بِأخيلَةِ الذين طَواهُمُ الدَهرُ، وكَم جَرَّبْتُ أن أنسَى حَاضِري لأعودَ بقِراءَةِ الأسفَارِ[1] إلى مَسَارِحِ الأجيَالِ الغَابِرَةِ، فَلم يُجْدِني كُلُّ ذَلكَ نَفعًا بَل كُنتُ كمَنْ يُحاوِلُ إخمَادَ النارِ بالزَيْتِ، لأنَّني لم أكُن أرَى من مَواكِبِ الأجيَالِ سِوى أشبَاحِها السَوداء، ولا أسمَعُ مِن أنغَامِ الأُمَمِ غَيرَ النَدْبِ والنُواحِ، فسِفْرُ أيّوبَ[2] كان عِندي أجملَ مِن مَزَامِيرِ دَاودَ[3]، ومَراثي إرميَا[4] كانَت أحبَّ لَديَّ من نَشيدِ سُليمانَ[5]، ونَكبَةُ

(١) الأسفار: ج سِفر: وهو الكتاب العظيم ويُطلق على أجزاء التوراة.

(٢) سفر أيوب: من كتب التوراة (حول ٤٠٠ ق.م) يعرض من وراء قصة أيوب مشكلة الشرّ في العالم ولا يجد لها حلاً إلاّ في الخضوع لله. والكتاب من آيات الأدب الشرقي وأغناها شاعرية وأعمقها معرفة بالإنسان.

(٣) مزامير داود: سفر من أسفار التوراة. وهي تعني الأناشيد التي يُتَرَنَّمُ بها مع النفخ في القصب. ويتضمَّن هذا السفر ١٥٠ صلاة وتسبيحًا.

(٤) مراثي إرميا: أحد أسفار التوراة. نبوءة تملأُها عواطف الأسى. حذَّر شعبه كثيرًا وتنبأ لهم بالكوارث التي سوف تحلُّ بهم إذا لم يعودوا إلى الربّ.

(٥) نشيد سليمان: من أسفار التوراة. وهو قصيدة رمزية تصوِّر علاقة الله بشعبه، من خلال حبِّ الرجل للمرأة، هذا الحب الذي هو هبة من الله.

البَرامكةِ[١] أشدَّ وَقعًا في نَفسي مِن عَظَمةِ العبّاسيّين، وقَصيدةُ ابن زُريق[٢] أكثرَ تَأثيرًا مِن رُباعِيات الخَيَّام[٣]، وروايةُ هَملت[٤] أقرَبَ إلى قَلبي من كُلِّ مَا كَتَبَهُ الإفرِنج.

كَذَا يُضعِفُ القُنوطُ بَصيرتَنا فَلا نَرَى غَيرَ أشبَاحِنا الرَهيبة، وهكَذا يَصُمُّ اليَأسُ آذانَنا فَلا نَسمعُ غَيرَ طَرَقاتِ قُلُوبِنا المُضطَرِبَة.

***

(١) البرامكة: أسرة فارسية من بلخ. امتازت بالكرم. تنتسب إلى جدها برمك سادن (خادم) بيت النار ببلخ. كانت مجوسية ثم أسلمت وتقلّد أبناؤها الوزارة في عهد العباسيين. نكبهم الرشيد فنكّل بهم لأسباب مختلفة.

(٢) ابن زريق: شاعر عباسي من قبيلة طيّئ من بني لام، يمتاز بشعر النواح والأنين.

(٣) الخيّام: (توفي في حدود عام ١١٣٢م). عالم وشاعر فارسي رقيق ساهم في إصلاح الحساب السنوي الفارسي. له في الشعر «الرباعيات» وقد بدا فيها شاعر القلق والتشاؤم النفساني وشاعر الأبيقورية (اللذة). وممن نقلوا (الرباعيات) إلى العربية شعرًا: وديع البستاني وأحمد الصافي النجفي. وأحمد رامي، وإبراهيم المازني...

(٤) هملت (Hamlet): أمير دانمركي. تظاهر بالجنون ليثأر لأبيه، وقد اتخذ شكسبير من الحادثة موضوعًا لمأساة شهيرة بهذا الاسم.

بين عشتروت والمسيح

بينَ تِلكَ البَساتينِ والتُلُول التي تَصِلُ أطرَافَ بَيروتَ بأذيَالِ لُبنانَ يُوجَدُ مَعبَدٌ صَغيرٌ قَديمُ العَهدِ محفُورٌ في قَلبِ صَخرةٍ بيضَاءَ قَائمةٍ بينَ أشجَارِ الزَيتونِ واللوزِ والصَفصَافِ. ومَع أنَّ هذا المعبدَ لا يبعُدُ أكثرَ من نِصفِ مِيلٍ عن طَريق المَرْكَبات، فقَد قَلَّ مَنْ عَرَفَهُ مِن مُحِبّي الآثَارِ والخَرَائبِ القَديمةِ، فهو مثلُ أشياءَ كَثيرةٍ خَطيرةٍ في سُوريّا، مُختبِئ وراءَ سَتائرِ الإهمَالِ، فكأنَّ الإهمَالَ قَد أبقَاهُ محَجُوبًا عَن عُيونِ الأثريِّينَ ليجعَلَهُ خَلوةً لنُفوسِ المُتعَبينَ ومَزَارًا للمُحبّينَ والمُستَوحِشين.

والدَاخلُ إلى هَذا المَعبدِ العَجيبِ يَرَى على الجِدارِ الشَرقيِّ مِنهُ صُورَةً فِينيقيّةَ الشَواهِدِ والبيِّنَاتِ محفورةً في الصَخرِ، قَد محَتْ أصَابعُ الدَهرِ بَعضَ خَطوطِها، ولوَّنتِ الفُصُولُ مَعَالِمَهَا، وهي تُمثّلُ عشَتروتَ رَبَّةَ الحُبِّ والجَمالِ جَالسَةً على عَرشٍ فَخمٍ، ومِن حَولِها سَبعُ عَذَارى عَارياتٌ واقفَاتٌ بهَيئاتٍ مُختلِفةٍ، فالوَاحِدةُ مِنهنَّ تَحمِلُ مِشعَلاً، والثَانيةُ قِيثارةً، والثالثةُ مَبخَرةً، والرَابعةُ جَرَّةً مِنَ الخَمرِ،

والخَامسةُ غُصنًا مِنَ الوَرد، والسَادسةُ إكلِيلاً مِنَ الغَار، والسَابعةُ قَوسًا وسِهامًا، وجَميعُهن نَاظراتٌ إلى عَشتروتَ(١) وعلى وُجوهِهنّ سَيماءُ(٢) الخُضوعِ والامتِثَال.

وعلى الجِدارِ الثَاني صُورةٌ أُخرى أحدَثُ عَهدًا وأكثرُ ظُهورًا تُمّثّلُ يَسوعَ النَاصريَّ مَصلُوبًا، وإلى جَانِبِهِ أُمُّه الحَزينَةُ ومَريمُ المَجدليةُ وامرأَتَان ثَانيتَان تَنتَحِبان. وهَذِهِ الصُورةُ البيزَنطيّةُ الأسلوبِ والقَرائِنِ تَدُلُّ على كَونِها حُفِرَتْ في القَرنِ الخَامِس أو السَادِسِ للمَسيح.

وفي الجِدَارِ الغَربيِّ كُوَّتَانِ مُستَديرَتَانِ يَدخُلُ مِنهُما شُعاعُ الشَمس عِندَ أصيلِ النَهارِ ويَنْسَكِبُ على الصُورَتيْن، فَتَظهَران كأنّهما قَد طُلِيتَا(٣) بِماءِ الذَهَب.

وفي وَسَطِ المَعبدِ حَجَرٌ من الرُخَامِ مُربَّعُ الشَكلِ على جَوانِبِهِ نُقوشٌ ورسُوماتٌ قَديمَةُ الطَرازِ(٤)، قَد انحجَبَ بَعضُها تحتَ كتلاتِ

---

(١) عشتروت: معبودة الفينيقيين. امتدّت عبادتها من أُوغاريت إلى المدين الفينيقية الأخرى وإلى فلسطين.

(٢) سيماء: علامات.

(٣) طُليتا: دُهِنَتا.

(٤) الطراز: النوع.

مُتحجّرةٍ من الدِمَاء تَدلُّ على أنَّ الأقـدَمينَ كـانُوا يَنحَـرُونَ ذَبَـائِحَهم على هَذَا الحَجَرِ، ويَصُبُّوَن فوقَه قَرابينَ[1] الخَمرِ والعِطرِ والزَيت.

ولم يكُنْ في هَذَا المَعبدِ الـصَغيرِ شَيءٌ آخـرُ سِـوى سَـكينةٍ عَميقـةٍ تُعانِقُ النفَسَ، وهَيبةٍ سِحريّةٍ تُبيحُ[2] بتَموُّجاتِهـا أسرارَ الآلهـةِ وتَـتكلَّمُ بِلا نُطقٍ عن مَآتي الأجيالِ الغَابرةِ، ومَسيرِ الشُعُوبِ من حَالةٍ إلى حَالةٍ ومِن دِينٍ إلى دِينٍ، وتَستميلُ الشَاعَرَ إلى عَـالَمٍ بَعيـدٍ عَـن هَـذَا العَـالَمِ، وتُقنِعُ الفَيلسوفَ بأنَّ الإنسَانَ مَخلوقٌ دينٍ يَشعُرُ بها لا يَـراه، ويَتخيَّـلُ ما لا تَقعُ عليهِ حَواسُّه، فَيرسُـم لـشعورِهِ رُمُـوزًا تَـدُلُّ بمَعانيهـا عـلى خَفَايا نَفسِه، ويُجسِّمُ خَيالَه بالكَلامِ والأنغَامِ والصُوَرِ والتَماثيـلِ التـي تُظهِرُ بأشكَالِها أقدسَ مُيولِه في الحَياةِ، وأجملَ مُشتَهياتِهِ بعدَ المَوت.

في هَذَا الهَيكَلِ المَجهُولِ كُنتُ ألتَقي سَلمى كَرامَـه مـرّةً في الـشَهرِ فنَصرِفُ السَاعاتِ الطِوالَ نَاظِرَيْنِ إلى الصُورتَينِ الغَـريبتَينِ مُفكِّـرَيْنِ بفَتى الأجيَـالِ المَـصلوبِ فَـوقَ الجُلجُلـةِ، مُستحـضرَيْنِ إلى مُخيِّلتَيْنـا أشبَاحَ الفِتيانِ والصَبَايا الفِينيقيّـينَ الـذينَ عَاشُـوا وعَـشِقُوا وعَبَـدُوا

(١) قرابين: ج قربان: ما يُقدَّمُ تكريمًا للآلهة عند القدماء، وتقرُّبًا منها.
(٢) تُبيح: تُفصِحُ، تُظهِرُ، تفضَحُ.

الجَمَالَ بشَخصِ عَشتروتَ فَحَرَقُوا البَخُورَ أمَامَ تَماثِيلِها، وهَرَقُوا الطُيوبَ على مَذابِحِها، ثُمَّ طَوَتهُمُ الأرضُ[1] فلَم يَبقَ مِنهُم سِوى اسمٍ تُرَدِّدُهُ الأيامُ أمَامَ وَجهِ الأبديَّةِ[2].

كَم يَصعُبُ عَليَّ الآنَ أن أُدوِّنَ بالكَلام ذِكرَى تِلكَ السَاعَاتِ التي كانَت تَجمَعُني بسَلمَى، تِلكَ السَاعَاتِ العُلْويّةِ المُكتنفَةِ باللَّذةِ والأَلَم، والفَرحِ والحُزنِ، والأمَلِ واليَأسِ، وكُلِّ مَا يَجعلُ الإنسَانَ والحَياةَ لُغزًا أبديًّا. ولَكن كَم يَصعُبُ عَليَّ أن أذكُرَها ولا أرسُمَ بالكَلامِ الضَئيلِ خَيالاً مِن أخيِلَتها ليبقَى مَثلاً لأبنَاءِ الحُبِّ والكَآبة!

كُنَّا نَختلي في ذَلك الهَيكلِ القَديم، فنَجلسُ في بَابِه سَانِدَيْنِ ظَهرَيْنا إلى جِدارِهِ مُرَدِّدَيْنِ صَدَى مَاضِينا، مُستَقْصِيَيْنِ[3] مَآتيَ حَاضِرِنا، خَائِفَيْنِ مُستَقبَلُنا. ثُمَّ نَتدرَّجُ إلى إظهَارِ مَا في أعمَاقِ نَفسَيْنا فيَشكُو كُلٌّ منَّا لَوعَتَهُ وحَرقَةَ قَلبِهِ، ومَا يُقاسِيه من الجَزَعِ[4] والحَسرَة، ثُمَّ يُصَبِّرُ واحدُنا الآخرَ بَاسِطًا أمَامَه كُلَّ مَا في جُيوبِ الأمَلِ مِنَ الأوهَامِ

---

(١) طوتهم الأرض: ماتوا، قضوا نحبهم، دُفنوا في التراب.

(٢) المعبد، يسوع المصلوب، مريم العذراء: تجسيد للمثلّث الرومنسي: الحب، الطهر، الألم.

(٣) مُستقصِيَيْنِ: متحرِّيَيْن.

(٤) الجزع: الخوف.

المُفرِحَةِ والأحلامِ العَذبَةِ، فيَهدَأُ رَوعُنا، وتَجِفُّ دُمُوعُنا، وتَنفرِجُ مَلامِحُنا، ثُمَّ نَبتَسِمُ مُتناسِيَيْنِ كُلَّ شَيءٍ سِوى الحُبِّ وأفرَاحِه، مُنصَرِفَيْنِ عَن كُلِّ أمرٍ إلاَّ النَفسَ ومُيولَهَا، ثُمَّ نتعانَقُ فنَذوبُ شَغفًا وهُيامًا[1]، ثُمَّ تُقبِّلُ سَلمى مَفرِقَ شَعري بطُهرٍ وانعطَافٍ فتَملأُ قَلبي شُعاعًا، وأُقبِّلُ أطرَافَ أصَابِعِها البيضَاءِ فتُغمِضُ عَينَيها وتَلوي عُنُقَها العَاجي وتَتَورَّدُ وَجنَتَاها باحمِرارٍ لَطيفٍ يُشابِهُ الأشعَّةَ الأُولى التي يُلقِيها الفَجرُ على جِباهِ الرَوابي. ثُمَّ نسكُتُ ونَنظُرُ طَويلاً نَحوَ الشَفَقِ البَعيدِ حيثُ الغُيومُ المُتلوّنةُ بأنوَارِ المَغرِبِ البُرتُقاليَّة.

ولم تَكُنِ اجتِماعَاتُنا مُقتَصِرَةً على مُبادَلةِ العَواطفِ وبَثِّ الشَكوى، بَل كُنّا نَنتقِلُ على غَيرِ مَعرفةٍ منّا إلى العُموميّاتِ فنتبادَلُ الآراءَ والأفكَارَ في شُؤونِ هَذَا العَالَمِ الغَريبِ، ونَتباحَثُ في مَرامي الكُتُبِ[2] التي كُنّا نَقرأُهَا ذاكرَيْن حسناتِها وسَيِّئاتِها، ومَا تَنطوي عَليه من الصُورِ الخَياليَّةِ والمَبادِئ الاجتماعِيَّة، فتَتكلَّمُ سَلمى عَن مَنزلةِ المَرأةِ في الجَامِعَةِ البشَريّةِ، وعَن تَأثيرِ الأجيَالِ الغَابرةِ في أخلاقِها ومُيولِها وعَن العَلاقَةِ الزَوجيّةِ في أيّامِنا هَذِهِ ومَا يُحيطُ بها مِنَ الأمراضِ والمَفاسد.

---

(١) شغفًا وهيامًا: من درجات الحبِّ الشديد.

(٢) مرامي الكتب: أهدافها، غاياتها، مقاصدها.

وإنّي أذكرُ قولَها مرّةً: إنَّ الكُتّابَ والشُعراءَ يُحاوِلونَ إدراكَ حَقيقةِ المَرأةِ ولكنَّهُم لـلآنِ لم يَفهَمُوا أسرَارَ قَلبِها ومُخبَّآتِ صَدرِها لأَنَّهُم يَنظُرونَ إليهَا من وراءِ نِقابِ الشَهَوات فلا يَرونَ غيرَ خُطوطِ جَسدِها، أو يَضعُونها تحتَ مكبِّراتِ الكَرهِ فلا يجِدونَ فيها غيرَ الضُعفِ والاستِسلام[1].

وقَولَها لي مَرّةً أُخرى -وقد أشارَتْ بيدِها إلى الرسمَيْنِ المَحْفُورَينِ على جُدرانِ الهَيكل: في قَلبِ هَذِهِ الصَخرةِ قَد نَقَشتِ الأجيَالُ رَمزَيْنِ يُظهِرَانِ خُلاصَةَ مُيولِ المَرأةِ ويَستَجليانِ غَوامِضَ نَفسِها المُراوِحَةِ بينَ الحُبِّ والحُزنِ، بينَ الانعطَافِ والتَّضحِيةِ، بينَ عَشتَروتَ الجَالسةِ على العَرشِ ومَريمَ الوَاقفةِ أمَامَ الصَليبِ... إنَّ الرَجلَ يَشتري المَجدَ والعظَمةَ والشُهرة، ولكنْ هي المَرأةُ التي تَدفعُ الثَمَنَ.

ولم يَدرِ باجتِماعَاتِنا السِريّةِ أحَدٌ سِوى الله وأسرَابِ العَصافيرِ المُتطايرةِ بينَ تِلكَ البَساتِينِ، فسَلمى كانَت تَجيءُ بمَركبتِها إلى المَكانِ المَدعُوِّ بحَديقَةِ البَاشا ثُمَّ تَسيرُ الهوينَاءَ على المَمرَّاتِ المُنفردةِ حتَّى تَبلُغَ

---

(١) إنه كلام سلمى كرامة: ولكنه في الواقع رأي جبران وهذه هي نقطة الضعف في القصص الجبراني، حيث تبدو شخصيات جبران كلها تتكلم بلسانه.

المَعبدَ الصَغيرَ فتدخُلُهُ مُستنِدةً على مَظلّتِها وعَلى وَجهِها لَوائحُ[1] الأمنِ والطُمأنينةِ فتجدُني مُنتظِرًا مُترقّبًا مُشتاقًا بكلِّ مَا في الشَوقِ مِنَ الجُوعِ والعَطش.

ولم نَخَفْ قَطُّ عَينَ الرَقيبِ، ولا شَعَرنَا بوَخْزِ الضَمِيرِ، لأنَّ النفسَ إذَا تطهَّرَتْ بالنَارِ، واغتَسَلَتْ بالدُمُوعِ تَترفَّعُ عَمّا يَدعُوه النَاسُ عَيبًا وعَارًا، وتَتحرَّرُ من عُبوديّةِ الشَرائع والنَواميسِ التي سنَّتْها التقَاليدُ لعواطفِ القَلبِ البَشريَّ، وتَقِفُ برأسٍ مَرفوعٍ أمَامَ عُروشِ الآلهَةِ[2].

إنَّ الجَامعةَ البَشريّةَ قدِ استَسْلَمَتْ سَبعينَ قرنًا إلى الشَرائعِ الفَاسِدَةِ فلَم تَعُدْ قَادرةً على إدرَاكِ مَعَاني النَوامِيسِ العُلْويّةِ الأوّليةِ الخَالدة. قد تعوَّدَتْ بصيرةُ الإنسَانِ النَظرَ إلى ضَوءِ الشُمُوع الضَئيلةِ فلم تَعُدْ تَستَطيعُ أن تُحدِّقَ إلى نُورِ الشَمس. لقد تَوارثَتِ الأجيَال الأمرَاضَ والعَاهَاتِ النَفسيّةَ بعضُها عن بَعضٍ حتّى أصبَحَتْ عُموميَّةً، بَل صارَتْ مِن الصِفَاتِ المُلازِمَةِ للإنسَان فلَم يَعُدِ النَاسُ يَنظُرونَ إليهَا كعَاهاتٍ[3] وأمرَاضٍ بَل يَعتبرُونها كخِلالٍ طَبيعيّةٍ نَبيلةٍ

---

(١) المقصود: ملامح، أي: مظاهر، علامات.

(٢) إن مأساة الإنسان تكبر بقدر ما تتسّعُ الهوّة بينه وبين المجتمع.

(٣) عاهات: ج عاهة: ما يشوّه الخَلق والخُلق.

أنزلَها الله على آدَمَ. فإذا ما ظَهرَ بينَهُم فردٌ خالٍ منهَا ظَنُّوهُ نَاقِصًا مَحرومًا مِنَ الكَمالاتِ الرُوحيّة.

أمّا الذينَ سيَعيبُونَ(١) سَلمى كَرامَه مُحَاوِلينَ تَلويثَ اسمِها لأنّها كانَت تَترُكُ مَنزل زَوجِها الشَرعيِّ لتَختَليَ برجُلٍ آخر، فهُم السُقَماءُ(٢) الضُعَفَاءِ الذينَ يَحسَبُون الأصِحّاءِ مُجرمِينَ وكِبارَ النفُوسِ مُتمرّدينَ. بَل هُم كالحَشَراتِ التي تَدُبُّ في الظُلمَةِ وتَخشَى الخُروجَ إلى نُورِ النَهارِ كيلا تَدوسَها أقدَامُ العَابرين.

إنَّ السَجينَ المَظلومَ الذي يَستطيعُ أن يَهدِمَ جُدرانَ سِجنه ولا يَفعلُ يَكونُ جَبانًا، وسَلمى كَرامَه كانت سَجينةً مَظلومةً ولم تستَطِعِ الانعِتاقَ(٣)، فهَل تُلامُ لأنّها كانَت تنظُرُ مِن ورَاءِ نَافذَةِ السِجن إلى الحُقولِ الخَضراءِ والفضَاءِ الواسِع؟ هل يَحسَبُها النَاسُ خَائنةً لأنّها كانَت تَجيءُ مِن مَنزلِ مَنصور بِك غَالب لتَجلِسَ بجَانبي بَين عَشتروتَ المُقدّسةِ والجبَّارِ المَصلوب؟ لِيَقُلِ الناسُ مَا شَاؤوا، فسَلمى

(١) يعيبون: مضارع من عاب: نسب إلى العيب.
(٢) السقماء: المرضى.
(٣) الانعتاق: التحرُّر.

قَدِ اجتَازَتِ المُستنقَعاتِ[1] التي تَغمُرُ أروَاحَهم وبلغَتْ ذلكَ العالَمَ الذي لا يَبلُغُهُ عُواءُ الذِئابِ وفَحيحُ الأفَاعي[2].

وَلْيَقُل النَاسُ مَا أرادُوا عَني، فالنَفسُ التي شاهَدَتْ وَجهَ المَوتِ لا تُذعِرُهَا وُجوهُ اللُصُوص، والجُنديُّ الذي رَأى السُيوفَ مُحتبِكَةً فَوق رَأسِه، وسَواقي الدِمَاءِ تَجري تَحتَ قَدَميْه لا يَحفِلُ بالحِجَارةِ التي يرشُقُهُ بها صِبيانُ الأزقَّة.

***

(١) المستنقعات: المقصود السفاسف والحقارات.

(٢) المقصود بـ «عواء الذئاب وفحيح الأفاعي»: صغار الناسِ السافلون منهم والحقيرون، الفاسدون والمفسدون.

التضحيـة

فَفي يَوم مِن أوَاخرِ حُزيرانَ وقَـد ثَقُلـتْ وَطـأةُ الحَـرِّ في الـسَواحلِ وطَلبَ النَاسُ أعَاليَ الجِبَالِ، سِرتُ كعَادتي نَحوَ ذَلكَ المَعبدِ وَاعِدًا نَفـسِي بِلقاءِ سَلمى كَرامَه حَامِلاً بيَدي كِتَابًا صَغيرًا مِن المُوَشَّحاتِ الأندلُـسيّة(1) التي كَانَت في ذَلكَ العَهدِ ولَم تَزَلْ إلى الآنَ تَستميلُ رُوحي.

بَلغتُ المَعبدَ عندَ الأصيلِ فجلستُ أَرقُـبُ الطَريـقَ المُنـسابةَ بـينَ أشجَارِ اللَيمونِ والصفـصَافِ، وأنظُـرُ مِـن وقـتٍ إلى آخـرَ إلى وَجـهِ كِتَابي هَامِسًا في مَسامِعِ الأثيرِ أبيَاتَ المُوشَّحاتِ التي تَستَهوي القَلـبَ برشَاقةِ تَراكيبِها ورَنَّةِ أوزانِها، وتُعيدُ إلى الـنَفسِ ذِكـرَى أمجَـادِ المُلـوكِ والشُعراءِ والفُرسان الذينَ وَدَّعُوا غِرناطةَ وقُرطبةَ وإشبِيليةَ(2) تَـاركينَ

---

(1) الموشَّحات الأندلسيّة: مفردها الموشَّح: ضَربٌ من الشعر يُـنظم عـلى تقـاطيع وقـوافٍ معلومـة بحيث لا يتقيَّد فيه الناظمُ بقافية واحدة. وهو من اختراع الأندلسيين، سُمِّيَ بـذلك لأنـه يُـشبه الوُشاحَ بأشكاله.

(2) غرناطة وقرطبة وإشبيلية: مدن أندلسية في إسبانيا.

غرناطة (Granada): احتلّها المرابطون، بقيادة يوسف بن تاشفين، سنة ١٠٩٠م، واتخذها محمد ابن نصر مؤسس سلالة بني الأحمر عاصمة له سنة ١٢٣٥م فاستمرّت قاعدة هذه الدولة حتـى سقوطها سنة ١٤٩٢م، وأصبحت في أيامهم مركزًا حضاريًا وثقافيًا لامعًا. أهم آثارهـا العربيـة قصر الحمراء الذي يُعَدُّ رائعة الأندلس. =

في قُصورِها ومَعَاهِدِها وحَدَائِقِها كُلَّ مَا في أرواحِهِم مِنَ الآمَالِ والمُيول ثُمَّ تَوَارَوْا ورَاءَ حُجُبِ الدُهورِ والدَمعُ في أجفَانِهِم والحَسرةُ في أكبَادِهِم.

وبعدَ سَاعةٍ التفتُّ فإذا بسَلمى تَميسُ[1] بقَدِّها النَحيلِ بينَ الأشجَارِ المُحتبكةِ[2] وتقتربُ نَحوي مُستنِدةً إلى مَظلَّتِها كَأنَّها تَحمِلُ كُلَّ مَا في العَالَمِ مَن الهُمومِ والمَتاعِب. ولمَّا بلغَتْ بَابَ الهَيكلِ وجَلسَتْ بقُربي، نَظرتُ إلى عَينَيها الكَبيرتَيْنِ فرَأيتُ فيهِما مَعانيَ وأسرَارًا جَديدةً غَريبةً تُوحِي التَحذُّرَ والانتبَاهَ، وتُثيرُ حُبَّ الاستِطلاعِ والاستِقصَاء[3].

وشعرَتْ سَلمى بمَا يجُولُ في خَاطِري فلَم تَشَأ أن يَطولَ الصِراعُ بينَ ظُنُوني وهَوَاجِسي، فَوضعَتْ يدَها على شَعرِها وقَالت: اقترِبْ منِّي، اقترِبْ منِّي يَا حَبيبي، اقترِبْ ودَعْني أزوِّدُ نفسِي مِنكَ، فقَد

= قرطبة (Cordaba): أسسها الفينيقيون، ثم احتلَّها الرومان (١٥٢ ق.م). استولى عليها العرب فأصبحت عاصمة الدولة الأموية في الأندلس (٧٥٦م). استعادها فرديناند سنة ١٢٣٦م. وهي مسقط رأس ابن رشد، الفيلسوف العربي الشهير. أهم آثارها العربية قصر الزهراء.

إشبيلية (Sevilla): فتحها العرب سنة ٧١٢م، وانتزعها فرديناند الثالث سنة ١٢٤٨م.

(١) تميس: تمشي متمايلة.

(٢) المحتبكة: الملتفَّة بعضُها على بعض.

(٣) الاستطلاع: الاستكشاف؛ الاستقصاء: التحرِّي والتتبُّع.

دَنَتِ السَاعةُ التي تُفرِّقُنا إلى الأَبد.

فصَرختُ قَائِلاً: مَاذا تَعنينَ يا سَلمى؟ وأيّةُ قُوّةٍ تَستطيعُ أن تُفرِّقَنا إلى الأَبد؟

فأجَابَتْ: إنَّ القُوّةَ العَمياءَ التي فرَّقَتْنا بالأمسِ سَتفرِّقُنا اليَومَ. القُوّةُ الخَرساءُ التي تَتَّخِذُ الشَرائعَ البَشَريّةَ تُرجمَانًا عَنها قَد بَنَتْ بأيدِي عَبيدِ الحَياةِ حَاجِزًا مَنيعًا بَيني وبَينكَ. القُوّةُ التي أوجَدَتِ الشَياطِينَ وأقامَتْهُم أولياءَ على أروَاحِ النَاسِ قَد حتَّمَتْ عَليَّ أن لا أخرُجَ مِن ذَلك المَنزلِ المَبنيِّ مِن العِظَامِ والجَماجِم.

فسألتُها قَائِلاً: هَل عَلِمَ زَوجُكِ باجتِماعَاتِنا فصِرتِ تخشَيْنَ غَضَبَهُ وانتقَامَه؟

فأجَابَتْ: إنَّ زَوجِي لا يَحفِلُ بي، ولا يَدري كيفَ أصرِفُ أيّامي، فهو مَشغولٌ عَني بأولئِكَ الصَبايَا المِسكيناتِ اللَواتي تقودُهُنَّ الفَاقَةُ إلى أسواقِ النخَّاسِينَ، فيَتَعَطَّرْنَ ويَكْتَحِلْنَ ليبعنَ أجسادَهُنَّ بالخُبزِ المَعجُونِ بالدِماءِ والدُمُوع.

فقُلت: إذًا مَاذا يصُدُّكِ[1] عن المَجيءِ إلى هَذَا المَعبدِ والجُلوسِ

(١) يصدُّك: يمنعك.

بجَانبي أمَامَ هيبةِ الله وأشبَاحِ الأجيَالِ؟ هَـل مَللـتِ النظـرَ إلى خَفايـا نَفسِي فطَلبَتْ رُوحُكِ الوَداعَ والتَفريق؟

فأجَابَتْ والـدمعُ يُـراودُ[1] أجفَانَهـا: لا يَـا حَبيبـي. إنَّ رُوحـي لم تَطلُبْ فِراقَكَ لأنَّكَ شَـطرُها، ولا ملّـت عينَـاي النَظـرَ إليـكَ لأنَّـكَ نُورُهما. ولَكنْ إذَا كانَ القَضاءُ قَد حَكمَ عـليَّ أن أسـيرَ عـلى عَقبـاتِ الحَياةِ مُثقَلةً بالقُيُودِ والسَلاسِل، فهَـل أرضَى أن يَكـونَ نَـصيبُك مـنَ القَضاءِ مثلَ نصيبي؟

فقُلتُ: تَكلَّمي يَا سَلمى، وَأَخبِريني عَن كُـلِّ شَيءٍ، ولا تترُكينـي ضَائِعًا بينَ هَذِهِ المُعمَّيات.

فأجَابَت: لا أَقدِرُ أن أقوُلَ كُلَّ شيءٍ، لأنَّ اللسَانَ الـذي أخرسَـتْهُ الأوجَاعُ لا يَتكلَّمُ، والشِفاهَ التي خَتَمَ علَيها اليَأسُ لا تَتَحـرَّكُ، وكـلُّ مَا أقدِرُ أن أقولَهُ لكَ هو أنّي أخَافُ عليكَ من الوُقوعِ في شَرَكِ[2] الذين نَصَبُوا ليَ الحَبائِلَ واصطادُوني.

فقُلت: مَاذا تَعنِينَ يا سَلمى ومَنْ هُمُ الذين تخَافِينَ عليَّ مِنهـم؟

---

(١) المقصود: والدمعُ يبلّل أجفانها.

(٢) شَرك: ج شُرُك وأشراك: فخ، حبائل يقيمها الصيادون للإيقاع بالطرائد.



فسترَتْ وجهَها بيدَيها وتأوّهَتْ مُلتاعـةً[1] ثُـمَّ قَالـت مُـتردّدةً: إنَّ المُطرانَ بولس غَالب قد صَار يعلَمُ بـأنّني أخـرجُ مـرّةً في الـشهرِ مـنَ القَبرِ الذي وَضَعَني فيه.

فقُلتُ: وهَل عَلِمَ المُطران بأنّك تَلتقِينَ بي في هَذَا المكانِ؟

فأجَابت: لو عَلِمَ بذَلكَ لَمَا رأيتَنـي الآنَ جَالـسةً بقُربِـكَ. ولكـنَّ الشُكوكَ تُخَامِرُهُ[2] والظنُونَ تتلاعبُ بأفكَارِه، وقَـد بَـثَّ عَـليَّ العُيـونَ لترَقُبَني، وأوعَزَ إلى خَدَمِهِ ليَتَجسَّـسُوا حَرَكـاتي[3] حتَّـى صِرتُ أشعُرُ بأنَّ للمنزلِ الذي أسكنُهُ والطُرقاتِ التي أسيرُ عليهَا نَواظرَ[4] تُحدِّقُ بي وأَصابعَ تشيرُ إليَّ وآذانًا تَسمعُ هَمْسَ أفكَاري.

وأطرقَتْ هُنيهة ثُمَّ زَادَتْ- والدَمعُ ينسكِبُ على وجنَتَيْها: أَنـا لا أخَافُ على نَفسي، لأنَّ الغَريقَ لا يخشَى البَلَلَ[5]، ولكنّي أخَافُ عليـكَ

(١) مُلتاعة: متألمة.

(٢) تخامرُه: تداخِلُه.

(٣) ليتجسَّسُوا حركاتي: ليتتبَّعوها.

(٤) المقصود: أنظار، أي عيون تحدِّق.

(٥) قال المتنبي:

والهجرُ أقتَـلُ لي مـمّا أُراقِبُـهُ
أنا الغريقُ، فما خَوفي من البَلَلِ

وأنتَ حُرَّ كنورِ الشَمسِ أن تَقَعَ مِثلي في أشرَاكِهِ، فيَقبِضَ عليكَ بأظافِره، وينهشَكَ بأنيابه. أنَا لا أخَافُ من الدَهرِ لأنَّه أفرَغَ جَميعَ سِهامِهِ في صَدري، ولكنّني أخَافُ عَليكَ وأنتَ في رَبيعِ العُمرِ أن تلسَعَ الأفعَى قَدمَيْكَ، وتوقِفَكَ عن المَسيرِ نحوَ قِمّةِ الجَبلِ حيثُ ينتظِرُكَ المستقبلُ بأفراحِه وأمجَادِه.

فقُلتُ: إنَّ مَنْ لا تَلسَعُه أفَاعِي الأيّامِ، وتنهَشَهُ ذِئابُ الليالي يَظلُّ مَغرورًا بالأيّامِ والليَالي. ولكنِ اسمَعي يَا سَلمى، اسمَعيني جَيّدًا، أليسَ أمامَنا غيرُ الفِراقِ لنَتَّقي صَغَارةَ النَاسِ[1] وشرورَهم؟

هل سُدَّتْ أمامَنا سُبُلُ الحُبِّ والحيَاةِ والحُريّةِ فلم يَبقَ غيرُ الاستِسلامِ إلى مَشيئةِ عَبيدِ الموت؟

فأجَابَت بلهجةٍ يُساوِرُها القُنوطُ والحَسرة: لم يبقَ أمَامنَا غيرُ الوَداعِ والتَفرُّق.

فأخَذْتُ يدَها وقد تمرّدَتْ رُوحي في دَاخلي وتبدَّدَ الدُخَانُ عن شُعلةِ فُتوَّتي. فقُلتُ مُتهيِّجًا: قدِ استَسلَمْنا طَويلاً إلى أهوَاءِ الناسِ يَا سَلمى... مُنذُ تِلكَ السَاعةِ التي جمَعَتْنا حتَّى الآنَ ونحنُ ننقادُ إلى

---

(١) صَغارة الناس: حقارتهم.

العُميانِ، ونَركَعُ أمَامَ أصنَامِهِم. مُذ عرَفتُك ونَحنُ في يدِ المُطران بولس غالب مِثلَ كُرَتَيْنِ يَلعبُ بنَا كَيفَما أرادَ، ويَقذِفُنا حَيثُما شَاءَ، فهَل نَبقَى خاضِعِينَ لدَيْه مُحدِّقينَ ظُلمةِ نفسِه حتَّى يَلوكَنا القبرُ وتَبتلِعَنا الأرضُ؟ هَل وهبَنا الله نسمةَ الحيَاةِ لنَضعَهَا تحتَ أقدَامِ المَوت، وأعطَانا الحُريّة لنجعَلَها ظِلاً للاستِعباد؟ إنّ مَنْ يُخمِدُ نَارَ نفسِه بيدِه يَكونُ كَافِرًا بالسَماءِ التي أوقَدَتْها. ومَنْ يَصبِرُ على الضَيم ولا يَتمرَّدُ على الظُلم، يَكونُ حَليفَ البُطلِ على الحَقِّ، وشَريكَ السَفَّاحينَ[1] بقَتْل الأبريَاء.

قَد أحببتُكِ يَا سَلمى وأحبَبتِني، والحبُّ كنزٌ ثَمينٌ يُودِعُه[2] الله النفوسَ الكبيرةَ الحَسّاسةَ، فهل نَرمي بكَنزِنا إلى حَظائِرِ الخَنَازِيرِ لتُبعْثِرَه بأنُوفِها وتُذرِيَهُ بأرجُلِها؟ أمَامَنا العَالَمُ مَسرَحًا واسِعًا مملُوءًا بالمَحاسِن والغَرائِبِ، فلِمَاذا نَسكُنُ في هَذَا النَفَقِ[3] الضَيِّقِ الذي حَفَرَهُ المُطرانُ وأعوَانُه؟ أمَامَنا الحيَاةُ و مَا في الحياةِ مِنَ الحُريّةِ ومَا في الحُريّةِ مِنَ الغِبطَةِ والسَعادةِ، فلِمَاذا لا نَخلَعُ النيرَ الثَقيلَ عن عَاتِقَيْنا ونَكسِرُ

(١) السفَّاحين: القَتَلَة.

(٢) يودِعُه: يجعلُه وديعةً، أمانة...

(٣) النَفَق: سَرَبٌ في الأرض له مخرج إلى مكانٍ معهود.

القُيودَ المُوثقةَ بأرجُلِنا ونسيرُ إلى حَيثُ الرَاحةُ والطُمأنِينَـة؟ قُـومي يَـا سَلمى نَذهبُ من هَذَا المَعبدِ الصَغيرِ إلى هيكَـلِ الله الأعظَـم. هَلُمِّـي نَرحَلُ من هَذِهِ البلادِ ومَا فيهَا مِنَ العُبُوديّةِ والغَبَاوةِ إلى بِلادٍ بَعيـدةٍ لا تطالُها أيدِي اللُصُوصِ ولا يَبلُغُهـا لُهَـاثُ الأبالِـسَة. تَعـالَيْ نُـسرِعُ إلى الشَاطئِ مُسترينَ بوُشَاحِ الليَل فنَعتلي سَفينةً تُقِلُّنا إلى مَا ورَاء البِحـارِ وهُنـاكَ نَحيـا حَيـاةً مُكتَنَفَـةً بـالطُهرِ والتَفَـاهُم، فَـلا تَنفُثُنـا الثَعـابينُ بأنفَاسِها، ولا تَدوسُنا الضَواري بأقدَامِها. لا تَتردَّدي يا سَلمى، فهذِهِ الدَقائقُ أثمنُ من تِيجَانِ المُلوكِ وأسْمَى مِـن سَرائِـرِ المَلائِكَـة. قُـومي نَتبعُ عَمودَ النُورِ فيقودُنا من هَذِهِ الصَحراءِ القَاحِلةِ إلى حُقـولٍ تُنبِتُ الأزَاهرَ والرَياحِينَ.

فهزَّتْ رأسَها وقَد شَخَصتْ عَيناها بشَيء غـيرِ مَنظُـورٍ في فَـضَاءِ ذَلكَ الهَيكَلِ، وسَالَتْ على شفَتَيْها ابتسَامةٌ مُحزِنـةٌ تُعلِـنُ مـا في داخـل نفسِها من الشِدّةِ والألمِ، ثُمَّ قَالت بهُدُوء: لا، لا يا حَبيبـي، إنَّ الـسَماءَ قد وضعَتْ في يدِي كَأسًا مُفعَمةً بالخَلِّ والعَلقَم وقَد تَجرَّعْتُها صِرْفًـا[1] ولم يَبقَ فيهَا غيرُ قَطراتٍ قَليلةٍ سَوف أشربُها مُتجلّدةً لأرَى مَا في قَعـرِ

(١) تجرَّعتُها صِرْفًا: أي غير ممزوجة.

الكَأسِ مِنَ الأسرَارِ والخَفَايا. أمّا تلكَ الحياةُ الجديدةُ العُلْويّةُ المُكتنفةُ بالمَحبَّةِ والرَاحَةِ والطُمأنينةِ فأنَا لا أَستَحِقُّها، ولا أقوَى على احتِمالِ أفراحِها ومَلذّاتِها، لأنَّ الطَائرَ المَكسورَ الجَنَاحَيْنِ يَدُبُّ مُتَنَقِّلاً بينَ الصُخُورِ، ولكنَّه لا يَستطيعُ أن يَسبَحَ مُحلِّقًا في الفَضَاء، والعيُونَ الرمَداءَ[1] تُحدِّقُ إلى الأشيَاءِ الضَئيلةِ ولكنَّها لا تَقوَى على النَظرِ إلى الأنوَارِ السَاطِعَةِ، فلا تُحدِّثْني عن السَعادةِ لأنَّ ذِكرَها يُؤلمُني كالتَعاسة، ولا تُصوِّرْ ليَ الهَناءَ لأنَّ ظِلَّهُ يُخيفُني كالشَقاء... ولكنِ انظُرْ إليَّ لأُريكَ الشُعلةَ المقدَّسةَ[2] التي أَوقدَتْها السَماءُ بينَ رمَادِ صَدري...

أنتَ تَعلمُ بأنّني أحبُّكَ محبّةَ الأُمِّ وحيدَها، وهي المحبَّةُ التي علّمَتْني أن أَحمِيَكَ حتَّى مِن نَفسِي. هي المحبَّةُ المُطهَّرةُ بالنَارِ التي تُوقِفُني الآنَ عن اتِّبَاعِكَ إلى أقاصِي الأرضِ وتَجعَلُني أُميتُ عَواطِفي ومُيُولي لكي تَحيا أنتَ حُرًّا نَزيهًا وتَظلَّ في مَأمنٍ مِن لَوْمِ النَاسِ وتَقوُّلاتِهم[3] الفَاسِدَةِ. إنَّ المحبَّةَ المَحدودةَ تطلبُ امتلاكَ المَحبوب.

(١) العيون الرمداء: التي أصابها الرَّمَد. والرَّمَدُ كلُّ ما يَهيجُ العين ويؤلمها.
(٢) الشعلة المقدَّسة: الحب.
(٣) تقوُّلاتهم الفاسدة: تأويلاتهم غير الصحيحة.

أمَّا المحبّةُ غيرُ المتناهيةِ فلا تَطلبُ غَيرَ ذَاتِها[1]. المَحبَّةُ التي تجيءُ بينَ يَقظةِ الشَبابِ وغَفلتِه تَستكفِي باللِقَاء وتقنعُ بالوَصْل وتَنمُو بالقُبَلِ والعِناقِ، أمَّا المحبّةُ التي تُولَدُ في أحضَانِ اللانهَايةِ وتَهبِطُ مع أسرَارِ اللّيلِ فلا تَقنَعُ بغَيرِ الأبديّةِ ولا تَستكفي بغَيرِ الخُلودِ ولا تقفُ مُتهيبةً أمَام شيءٍ سِوى الأُلوهيّة...

عندَما عَرفتُ بالأمسِ أنَّ المُطرانَ بولس غالب يُريدُ أن يَمنَعَني عَنِ الخُروجِ مِن مَنزلِ ابنِ أخيهِ، ويَسلُبَني اللَّذةَ الوَحيدةَ التي عرفتُها مُذ تَزوَّجتُ، وقفتُ أمَامَ نافذةِ غُرفتي ونظَرتُ نَحوَ البَحرِ مُفكّرةً بما وَرَاءَه مِنَ البِلادِ الواسِعَةِ، والحُريّةِ المَعنويّةِ، والاستِقلالِ الشَخصيِّ، وتخيّلتُ نَفسِي عَائِشةً بقُربِكَ، مُحاطةً بأخيلةِ رُوحِكَ، مَغمُورةً بانعِطافكَ، ولكنَّ هَذِهِ الأحلامَ التي تُنيرُ صُدُورَ النِساءِ المَظلومَاتِ وتَجعَلُهُنَّ يَتمرَّدْنَ على التقَاليدِ البَاطِلةِ ليَعِشْنَ في ظِلِّ الحَقِّ والحُريّةِ، لم تَمُرَّ في خَاطِري حتَّى جَعَلَتْني أَستَصغِرُ نَفسِي وأَستَضْعِفُها وأرى مَحبَّتَنا واهيةً مَحدودةً لا تَستَطيعُ الوُقوفَ أمَام وَجهِ الشَمس. فبَكيتُ

(١) يقول جبران في كتاب «النبي»: المحبة لا تعطي إلا نفسها، ولا تأخذ إلا من نفسها. المحبة لا تملك شيئًا، ولا تريد أن يملكها أحد. لأنَّ المحبة مكتفية بالمحبة.

بُكاءَ مَلِكٍ أضَاعَ مُلكَه وغَنيٍّ فَقَدَ كنوزَه. ولكنَّني مَا لَبِثْتُ أن رَأيتُ وَجَهَكَ من خِلال دُمُوعي وأبصَرْتُ عينَيكَ مُحدِّقتينِ إليَّ، فتذكَّرت ما قُلتَه لي مَرَّةً وهو: هَلُمِّي يا سَلمَى نَقفُ أمَامَ الأعداءِ مُتَلقّين شِفارَ السُّيُوفِ بصُدُورِنا، فإن صُرِعْنا نَمُتْ كالشُّهدَاء، وإنْ تَغَلَّبْنا نَعِشْ كالأبطَالِ، لأنَّ عذَابَ النَفسِ بثَباتِها أمَامَ المَصاعِبِ والمَتَاعِب هو أشرفُ من تَقَهْقُرِهَا إلى حيثُ الأمنُ والطُمأنينة...

هَذِهِ الكَلِماتُ قلتَها لي يَا حَبيبي، عِندَما كانَت أجنحَةُ المَوتِ تُرفرِفُ حَولَ مَضجَعِ وَالدِي، وقَد ذَكرتَها بالأَمس وقَد كانَت أجنِحَةُ اليَأسِ تُصفِّقُ حَول رأسِي، فتَقوَّيتُ وتشجَّعْتُ وشَعرتُ وأنَا في ظُلمةِ السِجنِ بنُوعٍ مِنَ الحُرِيّةِ النَفسيّةِ التي تَستَهوِنُ الشَدائدَ وتَستَصغِرُ الأحزَانَ؛ ورَأيتُ حُبَّنا عَمِيقًا كالبَحرِ، عَاليًا كَالنُجوم مُتَّسِعًا كالفضَاء. وقَد جِئتُ اليَومَ إليكَ وفي نَفسي المُتَوَجِّعَةِ المنهوكَةُ قُوّةٌ جَديدةٌ وهي المَقدُرةُ على تضحيةِ الأمر العَظيمِ للحُصُولِ على أمرٍ أعظمَ، تَضحيةِ سَعادتي بقُربِكَ لكي تبقَى أنتَ شَريفًا بعُرفِ النَاس[1] بَعيدًا عَن غَدرهم وَاضطهَادِهم...

---

(١) عُرف الناس: معرفتهم، ما تعارفوا عليه.

كنتُ أجيءُ بالأمسِ إلى هَذَا المكانِ والقُيودُ الثقيلةُ تَغِلُّ[1] قَدميَّ الضَعيفتَينِ. أمَّا اليومَ فقَد جِئتُ شَاعرةً بعزمٍ يَهزأُ بثِقلِ القُيودِ ويَستَقْصِرُ الطَريق. كُنتُ أجيءُ مثلَ طَيفٍ طَارقٍ خَائِفٍ، أمَّا اليومَ فقَد جِئتُ مِثلَ امرَأةٍ حَيّةٍ تشعُرُ بوجُوبِ التَضحِيةِ، وتَعرِفُ قِيمةَ الأوجَاعِ وتُريدُ أن تَحمِيَ مَنْ تُحبُّه مِنَ النَاسِ والأغبيَاءِ ومِن نَفسِها الجَائِعة. كُنت أجلسُ حِذاءَك[2] مِثلَ ظِلٍّ مُرتجفٍ وقَد أتيتُ اليَومَ لأُرِيَكَ حَقيقتي أمَامَ عشتَروتَ المُقدَّسةِ ويَسوعَ المَصلوبِ. أنا شَجرةٌ نابتةٌ في الظِلِّ وقَد مَددتُ أغصَانيَ اليَومَ لكَي ترتَعش سَاعةً في نُورِ النهَار... وقَد جِئتُ لأودِّعَكَ يَا حَبيبي. فَليَكُن وَداعُنا عَظيمًا وهَائلاً مِثلَ حُبّنا، ليكُنْ وَداعُنا كالنَارِ التِي تَصهَرُ[3] الذَهبَ لِتجعَلَه أشدَّ لمعَانًا.

ولم تَترُكْ لي سَلمى مجالاً للكَلامِ والاحتِجَاجِ بَل نظرَتْ إليَّ وقَد بَرَقَتْ عَيناها، فأحَاطَتْ أشعتُهَا بوِجْدَاني، واتّشَحَتْ مَلامحُ وَجهِهَا بنِقَابٍ من الهَيبةِ والجَلالِ فبانَتْ كمليكةٍ تُوحي الصَمتَ والتَخشُّع،

---

(١) تَغِلُّ: تُقيِّدُ.
(٢) حذاءك: أمامك، إزاءك، قبالتك.
(٣) تصَهرُ: تُذيبُ.

ثُمَّ ارتمَتْ على صَدري بانعِطَافٍ كُلّي مَا عهدتُـه[1] فيهَا قَبـلَ السَّاعةِ، وطوّقَتْ عُنُقي بزَندِها الأملَسِ وقبَّلَـتْ شَـفتيَّ قُبلَـةً طَويلَـةً عَميقَـةً مُحرِقَةً أيقظَتِ الحيَاةَ في جَسدي، وأثَـارَتِ الأسرَارَ الخَفيّـةَ في نَفسي، وجعَلَتِ الذَاتَ الوَضعِيَّةَ التي أدعُوها «أنا» تَتمرَّدُ عـلى العَـالَمِ بـأسرِه لتخضَعَ صَامِتةً أمَامَ النَاموسِ العَلَوِيِّ الذي اتَّخَذَ صَدرَ سَلمَى هَـيكلاً ونفسَها مَذبَحًا.

ولمَّا غَربتِ الشَمسُ وامَّحَتْ أشعَّتُها الأخـيرةُ عـن تِلـكَ الحَـدائقِ والبَساتينِ، انتفضَتْ سَلمى ووقفَتْ في وَسَطِ الهَيكلِ، ونظرَتْ طَويلاً إلى جُدرانِه وزَوايَاه كأنَّها تُريـدُ أن تَـسكُبَ نُـورَ عَينَيهـا عـلى رُسُـومِهِ ورُمُـوزِهِ، ثُـمَّ تقـدَّمَتْ قَلـيلاً وجَثَـتْ خَاشِـعَةً أمَـامَ صُـورةِ يَـسُوعَ المَصلوبِ، وقبَّلَتْ قدَميهِ المَكلُومتَيْنِ مَرّاتٍ مُتواليةً ثُمَّ همسَتْ قَائلة:

هَا قَد اختَـرتُ صَـليبَكَ يَـا يـسوعَ النَـاصريّ وتركـتُ مَـسَرّاتِ عَشتروتَ وأفراحَها. قَـد كلّلـتُ رَأسِي بالأشـوَاكِ بَـدلاً مِـنَ الغَـار، واغتَسلتُ بدَمي ودُمُوعي بَـدلاً مِـن العُطُـور والطُيـوب، وتَجرَّعـتُ الخَلَّ والعَلقمَ بالكَأسِ التي صُنِعَتْ للخَمر والكَـوثر[2]، فـاقبَلْني بـينَ

(١) ما عهدتُه: ما عرفته، ما اعتدتُ عليه.

(٢) الكوثر: الشراب العذب؛ العلقم: المرّ، الحنظل.

تَابِعيكَ الأقوِيَاءِ بِضُعفِهم، وسَيِّرْني نَحوَ الجُلجُلَةِ برفقَةِ مُختارِيكَ المُستكْفِينَ بأوجَاعِهم المَغبُوطِينَ على كآبَةِ قُلُوبِهم.

ثُمَّ انتصبَتْ والتفتَتْ نَحوي قَائلةً:

سَأعودُ الآنَ فَرحةً إلى الكَهفِ المُظلم[1] حيثُ تَتراكضُ الأشبَاحُ المُخيفةُ، فَلا تُشْفِقْ عليَّ يَا حَبيبي ولا تَحزَنْ من أجلِي، لأنَّ النَفسَ التي تَرى ظِلَّ الله مرّةً لا تَخشَى بعدَ ذَلكَ أشبَاحَ الأبَالِسةِ[2]، والعَينَ التِي تَكتحِلُ بلَمحَةٍ واحِدةٍ مِنَ المَلإِ الأعلَى[3] لا تُغمِضُها أوجَاعُ العَالَم.

وخَرجَتْ سَلمى مِن ذَاكَ المَعبدِ مُلتفَّةً بمَلابسِها الحَريريّةِ وتَركَتْني حَائرًا ضَائِعًا مُفكِّرًا مجذُوبًا إلى مَسَارحِ الرُؤيا حيثُ تَجلِسُ الآلهةُ على العُروشِ، وتُدوِّنُ الملائكةُ أعمالَ البشرِ، وتَتلُو الأروَاحُ مأسَاةَ الحيَاةِ، وتَترنَّمُ عرائسُ الخَيالِ بأنَاشيدِ الحُبِّ والحُزنِ والخُلُود.

ولما صَحوتُ من هَذِهِ السَكرةِ، وكانَ الليلُ قَد غَمَرَ الوُجودَ بأموَاجِه القَاتِمَةِ، وجَدتُني هَائِمًا بينَ تِلكَ البسَاتينِ مُسترجِعًا إلى

---

(١) الكهف المظلم: بيتُها. والظلمة هي ظلمة النفوس السوداء التي تسكنه، والنفوس التي لا تعرف إلا الحقارة والصَغار.

(٢) الأبالسة: الشياطين.

(٣) الملأ الأعلى: السماء.

حافِظَتي صَدَى كُلِّ كَلمةٍ لفظَتْها سَلمى، مُعيدًا إلى نفسِي حَركاتِها وسَكِنَاتها[1] ومَلامِحَ وَجهِها ومَلامِسَ يَدَيْها، حتَّى إذَا مَا اتَّضَحَتْ لي حَقيقةُ الوداعِ ومَا سَيجيءُ بعدَه من ألمِ الوَحشةِ ومَرارَةِ الشَوقِ، جَمَدَتْ فِكرتي وتَراخَتْ خُيوطُ قَلبي، وعَلمتُ لأوّلِ مرَّةٍ أنَّ الإنسَانَ وإنْ وُلِدَ حُرًّا يَظلُّ عَبدًا لقسَاوةِ الشَرائِعِ التي سَنَّها آباؤُه وأجدَادُه، وأنَّ القَضاءَ الذي نَتوهَّمُهُ سِرًّا عَلَويًّا هو استِسلامُ اليومِ إلى مَآتي الأمسِ، وخُضوعُ الغَدِ إلى مُيول اليَومِ. وكَم مرّةٍ فكَّرتُ مُنذُ تِلكَ الليلةِ إلى هَذِهِ السَاعةِ بالنَوامِيس النَفسيّةِ التي جَعَلَتْ سَلمى تَختارُ المَوتَ بَدلاً مِنَ الحيَاةِ! وكَم مرّةٍ وضَعتُ نَبالةَ التَضحيةِ بجَانبِ سَعادةِ المُتمرِّدينَ لأرَى أيُّهما أجلُّ وأجمَل؟ ولكنَّني للآنَ لم أفهَمْ سِوى حَقيقةٍ وَاحدةٍ وهي: أنَّ الإخلاصَ يجعَلُ جميعَ الأعمالِ حَسنةً وشَريفةً؛ وسَلمى كَرامَه كانتِ الإخلاصَ مُتأنِّسًا وصِحَّةَ الاعتقَادِ مُتجَسِّدَة.

***

(٣) سَكِيناتها: ج سَكِينة. يقال: تركتهم على سَكِناتهم، أي: على أحوالهم التي كانوا عليها.

المنقــــد

ومرَّتْ خَمسةُ أعـوَامٍ عـلى زَواجِ سَـلمى ولم تُـرزَقْ وَلـدًا ليُوجِـدَ بكيَانِه العَلاقةَ الرُوحيّةَ بينَها وبينَ بَعلِها، ويقـرِّبُ بابتِسَامتِهِ نَفـسَيْهما المُتنافرتَيْنِ مِثلَما يجمَعُ الفَجر بَينَ أواخِرَ الليلِ وأوائِلَ النَهارِ.

والمرأةُ العَاقرُ مَكروهةٌ في كُـلِّ مكـانٍ لأنَّ الأنَانيـةَ تُـصَوِّرُ لأكثـرِ الرجَالِ دَوامَ الحيَاةِ في أجسَادِ الأبنَاءِ فيَطلبُونَ النَسلَ ليَظلُّـوا خَالـدِينَ على الأَرضِ.

إنَّ الرجُلَ المَاديَّ ينظرُ إلى زَوجتِه العَاقِرِ[1] بـالعَينِ التـي يَـرَى بهَـا الانتحَارَ البَطيءَ، فيَمقتُها ويَهجُرُها ويَطلبُ حَتْفَها[2] كأنّها عَدوٌّ غـدّارٌ يُريدُ الفَتْكَ به. ومَنصور بـك غَالـب كـانَ مَاديًّـا كـالتُرابِ، وقَاسِـيًا كالفُولاذِ، وطَامِعًا كالمَقبَرَةِ، وكانَت رَغبتُه بابنٍ يَرثُ اسـمَه وسُـؤدُدَه تُكرِّهُهُ بسَلمى المِسكينةِ وتُحوِّلُ محاسِنَها في عَينَيه إلى عُيوبٍ جَهَنَّمِيَّة.

إنَّ الشَجرةَ التي تَنبُتُ في الكَهفِ لا تُعطي ثَمَرًا، وسَـلمى كَرامَـه

---

(١) العاقر: التي لا تلدُ.

(٢) حتفها: موتها.

كانَتْ في ظِلِّ الحَيـاةِ فَلَـم تُثمِـرْ أطفَـالًا. إنَّ البُلبـلَ لا يَحُـوكُ عُـشًّا في القَفَصِ كَيلا يُورِثَ العبُوديّةَ لِفراخِه، وسَلمى كَرامَـه كانَـت سَـجينةَ الشَقاءِ فلم تَقسِمِ السَماءُ حيَاتَها إلى أسـيرَيْن. إنَّ أزَاهـرَ الأودِيـةِ هـي أطفَالُ يَلِدُها الحُبُّ والحُنُوُّ. فسَلمى كَرامَه لم تَشعُرْ قَطُّ بأنفَـاسِ الحُنُـوِّ ومَلامِسِ الانعِطافِ في ذَلكَ المنزلِ الفَخم القَائمِ عـلى شَـاطئِ البَحـر في رَأس بَيروت، ولكنَّها كانَت تُصلّي في سَكينة اللّيـالي ضَـارعةً أمَـامَ السَماءِ لتَبعَثَ إليها بطِفلٍ يُجفِّفُ بأصَـابِعِهِ الوَرديّـةِ دُموعَهـا، ويُزيـلُ بنُورِ عَينَيهِ خَيالَ المَوتِ عن قَلبها.

وقَد صَلَّتْ سَلمى مُتَوَجِّعَةً حتَّى مَلأتِ الفَـضَاءَ صَـلاةً وابتِهَـالاً وتضَرَّعَتْ مُـستغيثةً حتَّـى بَـدَّدَ صراخُهـا الغُيـومَ، فـسَمِعَتِ الـسَماءُ نداءَها وبثَّتْ في أحشَائِها نغمةً مُختَمِرَةً بـالحَلاوةِ والعُذُوبـةِ، وأعَـدَّتْها بَعدَ خَمسةِ أعوَامٍ من زوَاجِها لتصيِّرَها أُمًّا وتمحُوَ ذُلَّهَا وعَارَها.

الشَجرةُ النابتَةُ في الكَهف قَد أزهَرَتْ لتُثْمِرَ.

البُلبـلُ المـسجونُ في القَفَـصِ قَـد هَـمَّ ليَحُـوك عُـشًّا مِـن رِيـش جَناحَيْه.

القِيثارةُ التي طُرِحَتْ تَحتَ الأقدَامِ قَـد وُضِـعَتْ في مَهَـبِّ نَـسيمِ

المَشْرِقِ ليُحرِّكَ بأمواجِه مَا بقيَ مِن أوتَارِها.

سَلمى كَرامَه المِسكينةُ قَد مَدَّتْ ذِراعَيْها المُكبَّلتينِ بالسَلاسِلِ لتَقبلَ مَوهِبةَ السَماء.

وليسَ بين أفراحِ الحيَاةِ مَا يُضارعُ فَرَحَ المرأةِ العَاقِرِ عِندَما تهيِّئُها النَواميسُ الأزليَّةُ لتُصيّرَها أُمًّا. كلُّ مَا في يَقظَةِ الرَبيعِ مِنَ الجَمالِ، وكلُّ مَا في مَجيءِ الفَجرِ من المَسرَّةِ، يجتَمعُ بينَ أضلعِ المَرأةِ التي حَرَمَها الله ثُمَّ أعطَاها.

لا يُوجَدُ نُورٌ أشدُّ سُطوعًا وأكثرُ لَمَعَانًا مِن الأشعَّةِ التي يبعثُها الجنينُ السَجينُ في ظُلمَةِ الأحشَاءِ.

وكانَ نَيسانُ (أبريل) قَد جاءَ مُتَنقِّلاً بينَ الروابي والمُنحَدَراتِ عندَما تَمَّتْ أيَّامُ سَلمى[1] لتَلِدَ بِكْرَها، وكأنَّ الطَبيعةَ قَد وافقَتْها وعَاهَدَتْها فأخذَتْ تضعُ حِمْلَ أزاهِرِها وتَلُفُّ بأقمِطَةِ الحَرارةِ أطفالَ الأعشَابِ والريَاحين.

مَضَتْ شُهورُ الانتظَارِ وسَلمى تَتَرقَّبُ الخَلاصَ مِثلَما يَتَرَقَّبُ

---

(١) تمَّت أيام سلمى: أي تمَّت أيام حَبَلها وشارفت على الوَضْع، أي الولادة.

المُسافرُ طُلوعَ كَوكبِ الصَباحِ، وتنظُرُ إلى المستَقبلِ مِن ورَاءِ دُمُوعِها فتراهُ مُشعشِعًا، وقَد طَالما ظَهرَتِ الأشيَاءُ القاتِمَةُ مُتلمِّعَةً من خِلالِ الدُموع.

فَفي ليلةٍ وقَد طَافَتْ أشبَاحُ الظَلام بينَ تِلكَ المَنازِل في رَأس بَيروتَ، انطرَحَتْ سَلمى على مضجَعِ المَخَاضِ[1] والأوجَاع، فانتصَبَ الموتُ والحيَاةُ يتَصارَعانِ بجَانبِ فِراشِها، ووقفَ الطبيبُ والقابِلةُ ليُقَدِّما إلى هَذَا العَالَمِ ضَيفًا جَديدًا، وسكَنَتْ حَركةُ عَابِري الطَريقِ، وانخفضَتْ نغَمةُ أموَاجِ البَحرِ، ولم يَعُدْ يُسمَعُ في ذَلكَ الحَيِّ سِوى صُراخٍ هَائلٍ يتَصاعَدُ مِن نَوافِذِ مَنزلِ مَنصور بِك غالب، صُراخِ انفصَالِ الحيَاةِ عن الحيَاة... صُراخِ مَحبّةِ البقَاءِ في فضَاءِ اللاشيءِ والعَدَم... صُراخِ قُوّةِ الإنسَانِ المَحدودَةِ أمَامَ سَكينةِ القُوى غيرِ المُتنَاهية... صُراخِ سَلمى الضَعيفةِ المُنطرحَةِ تَحتَ أقدَامِ جَبّارَيْنِ: المَوتِ، والحيَاة.

عِندمَا لاحَ الفجرُ ولدَت سَلمى ابنًا، ولَمَّا سمِعتْ إهلالَه[2] فتحَتْ

---

(١) المخاض: آلام الولادة.

(٢) الإهلال: رفع صوت الطفل بالبكاء..

عَينَيْها المُغلَّفَتَيْنِ بالألمِ ونظرَتْ حَواليها فَرأتِ الأوجُهَ مُتهلِّلةً في جَوانبِ تِلكَ الغُرفَةِ... ولمَّا نظرَتْ ثانيةً رَأتِ الحيَاةَ والمَوْتَ مَا زَالا يَتصارَعان بقُربِ مضجَعِها، فعَادَتْ وأغمَضتْ عَينَيها وصَرَخَتْ لأوّلِ مَرةٍ: يا ولدي.

ولفَّتِ القَابلةُ الطِفلَ بالأقمِطَةِ الحرَيريّةِ ووضَعَتْهُ حِذَاءَ أمّه، أمَّا الطَبيبُ فظلَّ يَنظُرُ بعينَين حَزينَتَيْنِ نحوَ سَلمى ويهزُّ رَأسَه صَامِتًا بينَ الدَقيقةِ والأُخرى.

وأيقظَتْ نَغمَةُ الفَرحِ بعضَ الجيرانِ فجَاءوا بملابِسِ النَومِ ليُهنِّئوا الوالدَ بوَلدِه، أمَّا الطَبيبُ فبقيَ يَنظرُ بعينَين كئيبتَين نَحوَ الوَالدةِ وطِفلِها.

وأسرعَ الخَدَمُ نحوَ مَنصور بك ليبشِّرُوهُ بقُدُومِ وَارِثه ويَملأوا أيدِيَهم من عَطَايَاه، أمَّا الطَبيبُ فَلَبِثَ واقِفًا يَنظرُ بعينَين يائستَين إلى سَلمى وابنهَا.

ولمَّا طَلعَتِ الشَمسُ قَرَّبَتْ سَلمى وَلَدَها مِن ثَدْيِها فَفَتح عَينَيه لأوّلِ مرّةٍ ونظَر في عينَيها واختلجَ[1] وأغمَضَهُما لآخرِ مَرّة، فَدنَا

---

(١) اختلجَ: اضطراب، ارتجف.

الطَبيبُ وأخذَه مـن بـينِ ذِراعَيْهـا وانـسَكبَتْ عـلى وجنَتَيْـهِ دمعتَـانِ كَبيرتَانِ ثُمَّ هَمسَ في سِرِّه قَائِلاً: هُو زائرٌ رَاحِل!

مَاتَ الطفلُ وسُكّانُ الحَيِّ يفرحُونَ مع الوالدِ في القَاعـةِ الكُـبرى ويشرَبُون نخبَهُ ليعيشَ طَويلًا، وسَـلمى المِسكِينةُ تحـدِّقُ إلى الطَبيـب وتصرُخُ قَائِلة: أَعطِني وَلَدي لأضُمَّهَ. ثُـمَّ تُحـدِّقُ ثَانيـةً فـترَى المـوتَ والحياةَ يتصارَعان بجانِبِ سَريرِها.

ماتَ الطفلُ ورنَّاتُ الكؤوسِ تنموُ وتَتكاثرُ بينَ أيـدِي الفَـرِحِين بمَجِيئِهِ.

وُلِدَ مع الفَجرِ، ومَاتَ عندَ طُلُوعِ الشَمس، فـأيُّ بَـشريٍّ يـستطيعُ أنْ يَقيسَ الزَمنَ ليُخبرَنا مَا إذَا كانَتِ السَاعةُ التي تمرُّ بين مجيءِ الفَجرِ وطُلـوعِ الشَمس هي أقصرُ مِن الدَهرِ الذي يَمرُّ بينَ ظُهورِ الأمَمِ وتَوارِيها؟

وُلِدَ كالفِكرِ ومَاتَ كالتنهدةِ، واختَفَى كالظِلِّ، فأذَاقَ سَلمى كَرامَه طَعمَ الأُمومةِ، ولكنَّهُ لم يَبقَ ليُسعِدَها ويَزيلَ يدَ المَوتِ عن قَلبِها.

حياةٌ قصيرةٌ ابتدأَتْ بنهَايةِ اللَّيْل وانقـضَتْ بابتـداءِ النَهـار، فكانَـتْ مثلَ قَطرةِ النَدَى التي تَسكُبُها أجفانُ الظَلامِ ثمَّ تُجفِّفُها مَلامِسُ النُور.

كلمةٌ لفظَتْها النَواميسُ الأزليّة، ثُمَّ نَدِمَتْ عَليها وأعادَتْها إلى سَكينةِ الأبديّة.

لؤلؤةٌ قذفَها المَدُّ إلى الشَاطئِ، ثم جَرَفَها الجَزْرُ إلى الأعمَاقِ.

زنبقةٌ مَا انبثقَتْ من أكمَامِ الحَياةِ حتَّى انسحقَتْ تحتَ أقدَامِ المَوت...

ضيفٌ عزيزٌ ترقَّبَتْ سَلمى قُدومَه، ولكنَّه مَا حَلَّ حتَّى ارتحَلَ، ومَا فتَحَ مِصراعَي البَابِ حتَّى اختَفى...

جَنينٌ مَا صارَ طِفلاً حتَّى صَار تُرابًا، وهذه حَياةُ الإنسَانِ بل حياةُ الشُعوبِ، بل حياةُ الشُموسِ والأقمَارِ والكَواكب. وحوَّلت سَلمى عينَيها نحوَ الطَبيبِ وتنهّدَتْ بشَوقٍ جَارحٍ ثُمَّ صَرخَتْ قَائِلةً:

أعطِني ابني لأضمَّه بذراعَيَّ... أعطِني وَلَدي لأُرضِعهُ...

فنكَسَ[1] الطبيبُ رأسَه وقَال والغصَّاتُ تخرِسُهُ:

قَد مَاتَ طِفلُك يا سيِّدتي فتَجلَّدِي وتصبَّري لكَي تَعيشي بَعدَه.

---

(١) نكسَ رأسَه: أحناه بانكسارٍ وألم.

فصرخَتْ سَلمى بصَوتٍ هَائلٍ ثُمَّ سكتَتْ هُنيهَـةً، ثُـمَّ ابتـسمَتِ ابتسامَةَ فَرحٍ ومَسرَّةٍ، ثُمَّ تهلَّلَ وَجهُها كأنَّها عَرَفَتْ شَيئًا لم تَكُنْ تعرِفُـهُ وقَالت بهُدوء: أعطِني جُثَّةَ وَلدي، قَرِّبْهُ مِني مَيتًا.

فحمَلَ الطَبيبُ الطفلَ المَيـتَ ووضَـعَه بـينَ ذراعَيْهـا فـضَمَّتْهُ إلى صَدرِها وحَوّلَتْ وَجهَها نحوَ الحَائِطِ وقَالت تُخاطِبُهُ:

قَد جِئتَ لتَأخذَني يَا وَلدي. جئتَ لتَدُلَّني على الطَريـقِ المؤدِّيـةِ إلى السَاحِلِ. هَا أنذَا يَا وَلدي، فسِرْ أمَامي لنذهَبَ من هَذَا الكَهفِ المُظلِمِ.

وبعـدَ دَقيقـةٍ دخلَـتْ أشـعَّةُ الـشَمسِ مـن بـينِ سَـتَائرِ النَافـذة وانسكَبَتْ على جَسَدَيْنِ هامِدَيْن مُنطرِحَيْن على مـضجَعٍ تخفُـرُهُ هَيبـةُ الأُمومةِ وتُظلِّلُه أجنحَةُ المَوت.

فخَرجَ الطَبيبُ بَاكيًا مِن تِلكَ الغُرفـة، ولمَّـا بَلـغَ القَاعـةَ الكُـبرى تبدَّلَتْ تهاليلُ المُهنِّئينَ بالصُراخِ والعَويل؛ أمَّا مَنصور بك غالـب فَلـم يَصرُخْ، ولم يتنهَّدْ، ولم يَذرِفْ دَمعةً، ولم يَفُهْ بكلمـةٍ، بَـل لَبِـثَ جَامِـدًا مُنتِصبًا كالصَنَمِ قَابِضًا بيَمينِهِ على كَأسِ الشَراب.

***

في اليَومِ التَالي كُفِّنَتْ سَلمى بأثوابِ عُرسِها البيضَاءِ ووُضِعَتْ في تَابوتٍ مُوَشَّى بالمُخمَلِ النَاصِعِ، أمَّا طفلُها فكانَت أكفَانُه أقمِطَتَهُ وتَابوتُه ذراعَي أمِّهِ وقبرُه صَدرَها الهادِئَ.

حَمَلُوا الجُثَتَيْنِ في نَعشٍ وَاحِدٍ ومَشَوْا ببطءٍ مُتلِفٍ يُشابِهُ طَرْقاتِ القُلوبِ في صُدُورِ المُنَازِعِين، فسَارَ المُشيِّعُونَ وسرتُ بينَهم وهُم لا يَعرِفُونَني ولا يَدرُون مَا بي.

بلغُوا المقبرَةَ فانتصَبَ المُطران بولس غالب يرتِّلُ ويُعزِّمُ، ووقفَ الكُهّانُ حَوله يُنَغِّمُونَ ويُسَبِّحُونَ وعلى وُجوهِهم الكَالحَةِ نقابٌ من الخُلُوِّ والغُفُول.

ولما أنزلُوا التَابوتَ إلى أعماقِ الحُفرةِ هَمَسَ أحدُ الوَاقِفِينَ قائلًا:

هَذِهِ أوّلُ مَرَّةٍ رأيتُ فيهَا جَسَدَين يضمُّهُما تَابوتٌ واحِد...

وقَال آخرُ:

كأنَّ طفلَها قد جاءَ ليأخُذَها ويُنقِذَها من مَظالِمِ زوجِها وقَساوتِهِ.

وقَال آخرُ:

تأمَّلُوا بوَجْهِ مَنصور بك فهو يَنظُرُ إلى الفَضَاء بعينَين زجاجيَّتَيْن

كأنَّه لم يَفقِدْ زوجتَه وطفلَه في يَومٍ واحِد.

وقَال آخرُ:

غَدًا يزوّجُه عمُّه المطرانُ ثانيةً من امرأةٍ أُخرى أوفرَ ثروةً وأقوى جِسمًا.

وظَلَّ الكُهّانُ يُرتِّلونَ ويُسبِّحونَ حتَّى فَرَغَ حُفَّارُ القُبورِ من رَدْمِ الحُفرةِ، فأخذَ المُشيّعونَ إذ ذَاكَ يَقترِبُونَ واحِدًا واحِدًا مِنَ المُطرانِ وابنِ أخيهِ يُصبِّرونَهما ويُؤاسُونَهما بمُستَعذَباتِ الكَلام، أمَّا أنا فبَقيتُ واقِفًا مُنفَرِدًا وَحدي وليسَ مَنْ يُعزّيني على مُصيبَتي، كأنَّ سَلمى وطفلها لم يكونا أقرب الناس إليّ.

عَادَ المُشيِّعونَ وبقيَ حَفّارُ القُبور مُنتصِبًا بجَانبِ القَبرِ الجَديد، وفي يَدِه رفشُه ومحفرُه، فدنوتُ منه وسَألتُه قائلًا:

أتذكرُ أينَ قَبرُ فَارس كَرامَه؟

فنظَرَ إليَّ طَويلاً ثُمَّ أشَارَ نحو قَبرِ سَلمى وقَال:

في هَذِهِ الحُفرةِ قَد مَدَدْتُ ابنتَه على صَدره، وعَلى صَدرِ ابنتِهِ مَددتُ طِفلَها، وفَوقَ الجَميعِ قَد وضعتُ التُرابَ بهذَا الرفش.

فأجبتُه: وفي هَذِهِ الحُفرةِ أيضًا قَد دَفنْتَ قَلبي أيُّها الرجُلُ، فما أقوَى سَاعدَيْك!

ولمَّا تَوارَى حَفَّارُ القُبور ورَاءَ أشجَارِ السَروِ خانني الصبرُ والتجلّدُ فارتمَيْتُ على قَبرِ سَلمى أبكِيها وَأرثِيها.

***

أسئلة

١) صحّح العبارة التالية: «فلم أذهب إلى البريّة إلاَّ عدت منها كئيبًا» واذكر السبب؟

٢) كيف صوّر جبران الجمال في هذا الكتاب؟ وما رأيك في تصويره؟

٣) اذكر بعض العبارات الدالة على التقمّص؟

٤) ما هو تفسير جبران للمحبة؟ وما الفرق بين المحبّة والحبّ؟

٥) من هو قيس العربيّ؟ ولماذا جاء جبران على ذكره (فصل العاصفة)؟

٦) لماذا ذكر المؤلف دانتي وسافو؟ وماذا تعرف عنهما؟

٧) شبّه جبران جلوسه بجلوس المجوسيّ. ما هو قصده؟

٨) هل توافق جبران في قوله: «إن الحبَّ ينشأ من أول نظرة وإلا لا ينشأ قط؟

٩) قال جبران: «هذا العالم الواقف عبيده بين الحيرة والشقاء.
هل ثمة علاقة بين الحيرة والشقاء؟

١٠) اعطِ أمثلة على وصف جبران رغبات رجال الدين.

١١) رأي جبران أن المدنيّة أفسدت المرأة، فهل هذا صحيح؟

١٢) اذكر أمثلة من هذا الكتاب على التناقض بين القروية وابنة المدينة.

١٣) ما هي علاقة المرأة بالأمة في عُرف جبران؟
١٤) ماذا قصد جبران بقوله «أضلعي تكاد تتفجّر حناجر وفوهات»؟
١٥) ماذا عنى بقوله: «سفر أيوب كان عندي أجمل من مزامير داود»؟
١٦) هل العبارة التالية صحيحة: «لم يكن في هذا المعبد الصغير شيء آخر سوى سكينة عميقة»؟ إن وجدتها غير صحيحة صححها.
١٧) كيف وصف جبران يسوع؟
١٨) ماذا قصد في مقارنته بين عشتروت على العرش ومريم أمام الصليب؟
١٩) ما هو قصد جبران في قوله: «الذات الوضعيّة التي أدعوها أنا»؟
٢٠) هل توافق جبران على مفهومه للزواج؟
٢١) هل ترى أن هذه الرواية واقعية أم فيها الكثير من نسج الخيال؟
٢٢) ما هي المميزات التي اتسم بها هذا الكتاب في رأيك؟ وما هي العيوب؟
٢٣) بيّن أثر التأثير الرومنسي، وأعطِ أمثلة؟
٢٤) هل الأوصاف التي عرضها جبران لبطلي هذه الرواية كافية لإبرازهما كما ينبغي؟

الفهرس

WWW.ALMMARFA.COM

1 رمل وزبد & الموسيقى
2 عرائس المروج
3 الأرواح المتمردة
5 دمعة وابتسامة
6 المواكب & المجنون
7 العواصف
8 البدائع والطرائف
9 السابق
10 النبي
11 آلهة الأرض
12 التائه
13 مختارات من رسائل جبران



٢٠ ش عبد المنعم رياض - من ش حـ
زهراء مدينة نصر - القاهـ
ت : ٠١٢٣٨٨٨٩٣٠ - ٣٣١٢٣٨
ail : almmarfa@yahoo.com
almmarfa@gmail.com

عبلين - الجليل - فلسطـ
جوال : ٠٥٢٣٠٧٧٣٣٤ (٠٠٩٧٢)
٠٥٢٨٥٠٢٨٢٦ (٠٠٩٧٢)
فاكس: ٠٤٩٥٠٢٤٧٢ (٠٠٩٧٢)

الأجنحة المتكسرة - جبران خليل جبران

